آلاف السنين في الصحراء

دراسات تاريخية (٣)

آلاف السنين في الصحراء

تاريخ موريتانيا من البواكير حتى القرن العشرين

أبو العباس إبراهام

نماء للبحوث والدراسات
Namaa for Research and Studies

نماء للبحوث والدراسات
Namaa for Research and Studies

نماء للبحوث والدراسات
بيروت – لبنان
info@nama-center.com
الرباط – المغرب
هاتف – فاكس: 00212808564831
موبايل: 00212688953384
القاهرة – مصر (نماء للبحوث والدراسات)
هاتف - واتس: 00201115533255

لطلبات الشراء البريدية: متجر نماء
www.nama-store.com
nama-store@nama-center.com
هاتف: 00201101509898
واتس: 00201098489815

متجر نماء
Namaa Store

الفهرسة أثناء النشر، إعداد نماء للبحوث والدراسات
ابراهام/ أبو العباس (مؤلف)

آلاف السنين في الصحراء (تاريخ موريتانيا من البواكير حتى القرن العشرين)

أبو العباس ابرهام (المؤلف)

784ص، (دراسات تاريخية)
17×24 سم

رقم الإيداع: 4167/2021
ISBN: 978-614-431-666-5

١. تاريخ حديث. ٢. موريتانيا. أ. العنوان
ب. السلسلة.

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تُعبر
بالضرورة عن وجهة نظر نماء»

حقوق الطبع والنشر محفوظة لنماء
© الطبعة الثانية، القاهرة / لبنان، 2021م

إهـــــداء

إلى أبويّ، إسلمُ ولالّة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
شكر وعرفان	٩
تنبيه بخصوص النُّطق وأسماء العَلم	١١
تقديم	١٣
مقدمة	١٥
خرائط توضيحية	٢١
القسم الأول: الأصول	**٣١**
١- الأصول (حوالي ٦٠٠٠٠٠ عام ق.م-٣٠٠٠ ق.م)	٣٣
٢- ظهور الشعوب (حوالي ٣٠٠-٣٠٠٠ ق.م)	٥٠
٣- أرض البيض والسود (حوالي ٣٠٠ ق.م-٧٠٠م)	٧٧
القسم الثاني: ملثّمون وسودان وتُجّار	**٩٩**
٤- دخول الإسلام (٧٠٠م-٨٠٠م)	١٠١
٥- بلاد الملثّمين (٨٠٠-١٠٥٤)	١١٥
٦- المجتمعات المُهمّشة والتابِعة: البافور والحراطين والساميون	١٥٤
٧- صعود السونينكي: مملكة غانا (واغادو)	١٧٨
القسم الثالث: عصر الدولة	**٢٠٣**
٨- المرابطون	٢٠٥
٩- المرابطون في الصحراء (ق ١١-ق ١٣)	٢٤٣
القسم الرابع: عصر المُدُن	**٢٦٧**
١٠- بلاد التكرور (ق١١-ق١٥)	٢٦٩

الموضوع	الصفحة

١١- مدن وتجارة واختلاط (ق١٣-ق١٧) ٣٠٠
القسم الخامس: غزوات وتجارة وشعوب ٣٥١
١٢- الداخلون إلىٰ الصحراء (١): عصر بني حسان (ح. القرن ١٤-القرن ١٧) ٣٥٣
١٣- الداخلون إلىٰ الصحراء (٢): الأوروبيون، المحلات (ق١٥-ق١٧) ٣٧٥
١٣- تشكل المجتمع البيضاني (ق١٢-ق١٩) ٤٠١
١٤- حرب شربَبّة (١٦٤٥-١٦٧٧) ٤٤٠
١٥- الحياة البيضانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ٤٦٧
القسم السادس: أمراء ورؤساء وغزوات ٥٢٥
١٦- إمارة الترارزة ٥٢٧
إمارة الترارزة ٥٣٥
١٧- البراكنة ٥٧٤
١٨- سلطات أولاد امبارك ٥٩٨
١٩- إمارة آدرار ٦٢٥
٢٠- إمارة إيدوعيش ٦٤٦
٢١- رئاسيات وزعامات ومشيخيات (١٧٠٠-١٩٠٠) ٦٦٥
القسم السابع: الحياة الموريتانية في القرن التاسع عشر ٦٨٣
٢٢- الحياة الموريتانية في القرن التاسع عشر ٦٨٣
الخاتمة ٧٥٧
المصادر والمراجع ٧٦١
المصادِر الأجنبية ٧٦٩

شكر وعرفان

بدأتُ كتابة هذا الكتاب في صيف ٢٠١٠ وأنا مقيم ودارِس بالولايات المتحدة الأمريكية. كان مشروع كتابته يختمر في ذهني وكنتُ أجمع له الملاحظات والمصادر قبل ذلك بفترة، غير أنني لم أشرع في كتابته إلا بعد تحصيل عديد الملاحظات وتوثيق كثيرِ الإحالات. وانقطعتُ عن كتابته في أوقات الفصول الدراسية ولم أنتهِ منه قبل صيف ٢٠١٢. في هذه السنوات وبعدها -إذْ ظلّ عملي مخطوطًا أتعهّده بالتنقيح من حينٍ لآخر- تنقّلت بين الولايات الأمريكية، واضطرَرت مرارًا لربط الجسور بالمصادر المتفرقة، واحتجتُ إلىٰ إرساليات من خارج أمريكا ومن موريتانيا، واستفدتُ من الأحاديث مع المتخصِّصين والعالِمين من المؤرِّخين والباحثين ممن ما كان لي أن أنهي هذا العمل من دونهم، وممن عادَ لهم الفضل في التصحيحات والتنقيحات التي من دونها كان هذا العمل سيبدو ناقصًا أكثر مما هو الآن؛ وكانت -بحقٍّ- منقذة لي من إحراج كبير. لذا أودُّ أن أتوجه بخالص الامتنان والشكر إلىٰ كل هؤلاء وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور عبد الودود ولد الشيخ الذي تراسلتُ معه واجتمعتُ به وقمت معه بمقابلة منشورة كان لها فضلٌ في تحويري لبعض الأطروحات الأساسية، واستفدت كثيرًا من ملاحظاته القيمة والأساسية ونقده وملاحظاته وتصحيحاته المهمة، وقد خصّني بتوجيهاتٍ ومصادر بالغة الأهميّة، وكان شرفًا عظيمًا لي أن قبِلَ تقديمَ الكتاب؛ فله جزيل الشكر والامتنان. وكما أتوجه بالشكر إلىٰ والدي، إسلم ولد ابرهام، الذي ما فتئ يُشجِّعُني ويُلهِمني في مساري الذي اتخَذْتُه، كما نوّرتني آراؤه وبحوثه وزوّدني بمختلف المصادر التي احتجتُ إليها. ولا يسعني إلا إبداء خالص

الامتنان والعرفان للدكتور ددود ولد عبد الله الذي بدورِه كان وسيلتي إلىٰ مصادر مهمة، والذي أعطىٰ وقته الثمين لمراجعة عملي والتعليق عليه، ونوّرني بملاحظات كان لها بالغ الأثر في تحوير بعض النقاط الأساسية في هذا العمل. وأتوجّه بخالص الامتنان إلىٰ الدكتور سيد أحمد ولد الأمير علىٰ توفير المعلومات والمصادر الثمينة التي احتجتُ له فيها، وعلىٰ مراسلاته ونصائحه وتثميناته القيّمة وكرمه بمجموع وثائقه التي جمعها في أسفاره البحثية عبر السنين.

أتوجه كذلك بخالص الشكر والعرفان إلىٰ مجتمعي الأكاديمي، الذي التحقتُ به طالبًا، بجامعة أريزونا، وإلىٰ المرحوم مايكل بوناين، أستاذ «المدينة الإسلامية» الذي شغل حتىٰ وفاته في ديسمبر ٢٠١١ رئاسة قسم دراسات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بجامعة أريزونا، والذي قدم لي ملاحظات ومساعدات مهمة. كما أودُّ أن أشكر الدكتورة ليلىٰ هدسون، أستاذتي المُشرِفة، والمؤرخة والأنثروبولوجية، التي نوّرَتني ملاحظاتها المهمة ووجهت تفكيري صوب عدة نقاط أساسية.

ولا يسعني إلاّ أن أتوجه بكبيرِ الشكر إلىٰ مكتبة جامعة أريزونا، منجمي المعرفي، ومكتبة الكونغرس الأمريكية، التي رابطتُ بها في مرحلة الكتابة الأوّلية للكتاب واستفدتُ كثيرًا من خدماتِها، ومكتبة الجامعة الأمريكية بواشنطن العاصمة علىٰ توفيرها للمصادر الضرورية لي في أريحية، واهتمامها بمساعدتي وتسهيل مهمتي البحثية.

تنبيه بخصوص النُّطق وأسماء العَلم

اعتمَدتُ في هذا البحث علىٰ كتابة مُختلِفة وغير مألوفة للنُّطق الموريتاني للأسماء ولأسماء الأعلام. وقد تضاربتُ في هذا مع ما يبدو لي المِعيارية العربية في التلفظ والخصوصية الموريتانية فيه. ومن الواضِح أن هذا التضارب يعودُ إلىٰ التشعّب في التقاليد الكِتابية للغة العربية فيما قبل الحداثة، وإلىٰ الاختلافات اللهجية ما بين اللهجات العربية. لذا ذهبتُ المذَهب الموريتاني، وإن لم يكن بعدُ مُهيمنًا مُطلَقًا، في كتابة القاف الحسّانية في هيئة «ک»؛ وذلك للتظليل علىٰ أنها تُنطَقُ بشكلٍ مُختلِف عن القاف العربية الفصيحة الاعتيادية، وهي أقرَبُ إلىٰ الجيم المصرية. ونادِرًا ما كتبتُ القاف الحسانية جيمًا، وإن كُنتُ فعلتُ ذلك مع «جدالة»، التي نبّهتُ أنها تُنطَقُ لدىٰ الموريتانيين «أكَدالة» (= جْدالة)؛ والسبب في هذه الحالة الخاصة يَعودُ إلىٰ تواريخ كتابة «جدالة» في التاريخ العربي الوسيط من ابن الورّاق، الذي ضاعت أعماله، إلىٰ ابن حوقل فالبكري ثم ابن خلدون فمن بعده.

وعلىٰ العموم، فإن كثيرًا من الموريتانيين يبتدئ الكلِمة المجزومة بهمزة وصل فيكتُبون «انواكشوط»، و«انوا ذيبو» لـ «نْواكشوط» و«نْواذيبو» مثلًا. إلاّ أنني تحدّيتُ هذه العادة غالبًا، وهي المُتقاطِعة مع ما يبدو قُدُمًا مِعيارية عربية فكتبتُ «مْليزِمات» مثلًا بدلًا من «امْلَيزمات». ولكنني حُدتُ عن هذا في كتابة «تْرارزة» إلىٰ «الترارزة»، و«عْلي» إلىٰ «اعلي». وأحيانًا عاندت المذهب اللهجي الحساني في كتابة التعريف لامًا مجزومة، فكتَبتُ مثلًا «البراكنة» بدَلًا من «لِبراكنة»، و«الرحاحلة» بدلًا من «ارحاحلة»، وإن أبقيْتُ علىٰ هذه الخصوصية الحسانية في

أسماء عَلَمٍ أخرىٰ. وقد أبقيتُ أحيانًا، وإن نادِرًا، علىٰ تضاربٍ في بعض الكِتابات أسماء العلم ليبراليَةً منّي مع تعدُّدِ المثاقفة والمشافهة والمُكاتبة في كتابتها.

وفيما يخصُّ الأسماء البولارية والسونينيكة، فرغم أنّها ظلَّت تُكتَبُ حتّىٰ عهد قريب بالأحرف العربية، إلاّ أنني ماشيتُ ما طرأ منها من التحوّلات إلىٰ الحرف اللاتيني، وأعدتُ كتابتَها تماشيًا مع طفرتِها الجديدة، وأتيتُ أحيانًا بكتابتِها الفرنسية والإنجليزية للمُقابلة ولربط الباحث بكيفية تنزيلاتِها في المصادر الأجنبية وتسهيل نفاذه إليها.

تقديم

تُنسب للفيلسوف اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد، هيرقليطس الإفسوسي، مقولةٌ قد أصبحت قولًا دارجًا نصها هو: «لا تمكن السباحة مرتيْن في النّهر نفسه». وبطريقته الخاصة، فإن تأليف أبي العباس ابرهام كتاب «التاريخ الشعبي» -والمؤلِّفُ نفسه هو من يقولُ بهذا الوصف- يرومُ شرحًا لهذه التحوّلية الجذرية (radicale mutabilité) للظرف الإنساني التي يشهدُ عليها مرور التاريخ.

يُريد أبو العباس، وهو يشرعُ في كتابة خلاصة تاريخية رائدة لماضي موريتانيا حتّىٰ نهاية القرن التاسع عشر، أن يُسهِم في الأعمال النافِعة المُشكّكة في «الثباتية (fixisme)» التي تواكِبُ غالبًا استقصاء «الأصول» والبحث عن الأب المُؤسِّس الفريد، المُشفَع بكلِّ الفضائل، والذي لم يفعل من يُعتقَدُ أنهم مُنحدِرون من صلبه عبر الزمان غير إعادة إنتاج مقامه وخِصاله. وهو ينهضُ ضدّ هذه النظرة التقليدية إلىٰ الأشياء السائدة بين الجمهور الموريتاني المتعلِّم -وحتىٰ غير المتعلِّم- التي تميل إلىٰ اختزال التاريخ في النَّسَب وفي «الأيام» الخالِدة في الذكر، حيث يتمُّ التعبير عن الحدَثيّة (évènementialité) الوحيدة الجديرة بأن تؤرخ: تلك الخاصة بالمجموعات المُسيطِرة. ويسمحُ له الأخذ بالبُعد الاقتصادي في الاعتبار -بالخصوص- أن يعيد إلىٰ مكانها الفئات «المُهمَّشة» من المجتمع، المُستثناة من السرديات التي تُقدِّمُ تتابُع الزعامات أو الإمامات التي يُختزَلُ فيها التاريخ الموريتاني كما أحبَّ أن يُقدِّمَه أولئك الذين كانت لهم الغلبة فيه.

وإذ امتد البصر في أوسع آفاق ماضي موريتانيا من منظور ارتقائي، فإننا سنصل للعصور السحيقة لما قبل التاريخ لكل الأصول؛ مما يمكِّننا من استقراء مدىٰ الرياء الكامن في كل استقصاءات الأنساب.

إن المقابَلَة الموسوعية جدًا التي يقوم بها أبو العباس بين المصادر الوثائقية العربية -المحلية والمغاربية والمشرقية- والكتابات باللغات الأوروبية، لتضَعُ بين يدَيِ القارئ الموريتاني، المحروم من الوصول إلىٰ هذه المصادر، قائمةً واسِعة من المُعطيات والشهادات جديرة بأن تُغذي بالمرّة معرِفة «حقائقية» بتاريخ يُعرِفُ عنه فيما عدا ذلك أنه مليء بالثغرات، وتُغذيَ تأمُّلًا نقدِيًا في قيمة «الوقائع» والشهادات التي يتمُّ اقتراحُها.

هذا المشروع طموح ويشهد علىٰ الجرأة «الاشتمالية» لمؤلِّفه. فعلىٰ مدىٰ فصولِه الاثن وعشرين وصل إلىٰ إعطاء خلاصة حولية لتاريخ المجال الموريتاني من العصر الباليوليثي حتّىٰ القرن التاسع عشر، ومن تطوّر المُدن القديمة (أوداغست، تنيكَي، أزوكَي...) والكصور (ودان، شنقيطي، تيشيت وولاتة) إلىٰ صراعِ شربّبة وتاريخ الإمارات والمشيخيات القبائلية الأبرز. وتُصبِحُ التراتبية الاجتماعية «التقليدية» موضوعًا لتطوّرات عديدة. ويُدخِلُنا أبو العباس في العلاقات ما بين الهويات والمجموعات. ويتعامل مع الحياة اليومية، مهتمًّا بالتغذية -من دون نسيان الشاي والتبغ طبعًا- وفي تنمية الأبدان وفي السلوك والنماذج اللِّبسية. ولا يغيب عن هذه الخارطة كذلك التاريخ الديني وحتىٰ الإنتاجات الأدبية والشِّعرية، رغم أن المؤلِّفَ في نهاية مقاله يُعبِّرُ عن أسفٍ لأنه لم يُعطِ للشعر الحساني المقام الذي أرادَ له.

لا مفَرَّ في نهاية العرض الثري الذي يقترِحه أبو العباس من ملاحظة أن الصحراء ليست الفراغ أو العائق أمام التنقّل، الذي يُتصوّرُ أحيانًا. فهي -علىٰ العكس- فضاءٌ ديناميكي جدًا، تحدثُ فيه كثيرٌ من الأشياء، وتتراكمُ فيه الصراعات، ولكنها أيضًا فضاء للتبادلات والتداخلات ما بين المجموعات عن طريق الفتوحات والإلحاق والتبادلات الأمومية... وخِلافًا لكلِّ الأوهام «الطهرانية» (purificatrices) ولكلِّ الهويات المُغلقة بأثرٍ مستحدث، فإن هذا العمل يُعلِّمنا أن المجال الموريتاني كان دومًا أرضًا مختلِطة وخالطة للإثنيات والقبائل، وأنها بوتقة انصهار (terre de brassage)، حيث لا تكون الأنساب المؤصلة غير ثمرة تاريخ مليء بالعوارِض وبالنزوات.

د. عبد الودود ولد الشيخ

مُقَدِّمَة

هذا كتاب من أجل كُتِب. شرح هذه المفارقة يكمن في الدوافع والظروف التي أَلَّفتُ فيها هذا الكتاب. فقبل أن أشرع في تأليفه كنتُ أداعب فكرة الكتابة عن قضية الدولة والقبيلة والسخرة في الصحراء، وسرعان ما نقلني هذا الاهتمام إلىٰ محاولة تأريخ التراتبية وصناعة السلطة والعبودية وأنظمة السيطرة في مجتمعات الصحراء. غير أن مفاجأتي كانت في غياب كتاب شامل ومُرضٍ عن تاريخ الصحراء (موريتانيا، والصحراء الغربية، ومناطق شرق جنوب الجزائر، وشمال جمهورية مالي)، بما يسمح للباحثين من أصحاب المواضيع المُحدّدة أن يؤطروا اهتماماتهم التاريخية ويضعوها في سياق عام. ومن هنا انصبَّ اهتمامي علىٰ المساهمة في رتق هذه الثغرة، التي خلُصتُ إلىٰ أن سدَّها سيكون فاتحة للاهتمام بتاريخ الصّحراء وتسريع وتيرة التأليف فيه وفهمه، وبالتأكيد -وعلىٰ الأقل بالنسبة إلي شخصيًا- تثبيت السياق العام لما أودُّ أن أفكِّرَ فيه أو أبحثَ فيه لاحقًا.

لا أدّعي أن تاريخ موريتانيا -والمجال الصحراوي عمومًا- كان مجهولًا، ولا أنه كان غائبًا عن الكتابة والتأريخ. بل إن كتابة التاريخ الشامل للبلاد هي مشروع قديم جديد. وتُظهر أدبيات الحوليات في بعض المدن التاريخية الموريتانية، وخصوصًا تيشيت وولاتة وتجكجة، تظهر اهتمامًا مجتمعيًا بتدوين تواريخ المدن وحوادثها المعلمية من قبل المؤسسة الاجتماعية منذ القرن الثامن عشر علىٰ الأقل. فلقد تولّدت الحاجة للتأريخ من رغباتٍ ومصالح مؤسّسة في التقاليد التّاريخية للصحراء، وكانت معرِفةً متجسِّدة، ليس فقط في الأنساب

ووظائفها التراتبيّة؛ وإنما في حفظ الوقائع والملاحم والتفاخر بها والسجع بها. ولم يكن من النادر وجود المؤرخين والنسابة في مجتمع الصحراء، وبعض هؤلاء أودع ما علِمَ في طيات الورق، بدءًا من القرن السابع عشر خاصةً، وبشكلٍ درامي منذ القرن التاسع عشر. ولا شك أن وجود دولة وطنية حديثة منذ القرن العشرين، وخصوصًا منذ منتصفِه، حفّز نوايا تأريخ الصحراء في أبعاد وطنية أشمل من البعد الأنسابي والتحديد الجهوي والحِفظية التقليدية. فقد بدأ المختار بن حامد (١٨٩٨-١٩٩٣) مشروع حياته المعلمي: توثيق «**حياة موريتانيا**»، جغرافيًا وسياسيًا وثقافيًا. وهو مشروع ربما كانت نواته قد بدأت في أعمال كتاب الحوليات وكتابات الأنساب التي وثّقها القدماء في القرن السابع عشر إلىٰ النصف الأول من القرن العشرين، أمثال محمد بن سعيد اليدالي (ت ١٧٥٢) ووالد بن خالنا الديماني (ت ١٧٩٨) والطالب أحمد بن طوير الجنة (١٨٤٩) ثم أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت ١٩١٣). ويختلف ابن الأمين، الذي عاش حتىٰ قُبيل الحرب العلمية الأولىٰ، عن سابقيه من مُدوني التواريخ في أنه كان أول كاتبٍ قاربَ تاريخ الصحراء من منظور عابر للجهة وللإقليم، رغم أن ثقل اهتمامه بقي مجغرفًا يتعلق بمركزية جهة جنوب غرب المجال الصحراوي، فاستبق بذلك -رغم المركزيّة القبليّة والعشائريّة- كتابة تاريخ «موريتانيا» قبل مولدها. وهذا الاهتمام هو الذي واصله وطوّره المختار بن حامد بعد استقلال الدولة.

بيدَ أن هذه الأعمال المشار إليها بقيت نوعًا من «التاريخ الخام» الذي يورد المعطيات التاريخية، التي يمتزج فيها الأسطوري بالواقعي والفلكلوري، وتتسلّلُ إليها أيديولوجيات القبائل وتمجيداتها وميز الأرستقراطية تجاه المجموعات المهمشة والمجونسة والتعدد العرقي. وبحكم روح عصرها؛ فقد بقيت خالية من المعالجة الأكاديمية التي تسمح برسم تاريخ نقدي خارج التصورات الظرفية والانطباعية، كما بقيت في غالبها ساكتة عن التابوهات الاجتماعية التي تحظر الخوض في المُحرِج والحي سياسيًا، وحذرة كذلك أمام نطق الحقائق «الصادمة»، إضافة إلىٰ اقتصارها علىٰ التاريخ الفوقي متمثِّلًا في حياة القبائل والسلطات، مختصَرَةً في الرجال الكبار من القواد والزعماء وإنجازاتهم. فكانت في غالبها إنتاجًا للتصورات وللسرد الذي أنتجته «السلطة» و«المؤسسة» في الصحراء، هذا

بالإضافة إلىٰ أن طابع السرد غلب فيها علىٰ طابع المنهجية؛ فكانت مادة غنية، ولكنها بقيت غير مستنضَبة.

ورغم أن التأريخ الاستعماري كان نقلةً نوعية، إلاّ أنه لم يحلّ هذه المشكلة؛ فبقيت أعمال المُخبِرين والإداريين والمؤرِّخين المرتبطين بالدخول الفرنسي؛ كالجزائري إسماعيل حامد، والفرنسيين بول مارتي وجورج بوليه ولارتيغ وغيرهم من مؤرخين أو إداريين ورحالة أعمال رحلات استعلامية، واستشراقية في معظمها؛ بقيت أعمالهم مليئةً بالصور النمطية والتقسيمات البنيوية الجامدة، إضافة إلىٰ أنها لم تكن غير توثيق للروايات العشائرية أو للرؤية الفرنسية في القرن التاسع عشر، التي رأت في نفسها حامل مشعل التنوير أمام مجتمع يفتقر لهذا التنوير ويحتاجه.

ولم تأتِ المعالجة الأكثر منهجية من منظورنا التأريخي إلا من الدوائر الأكاديمية في القرن العشرين. ولا يزعم هذا الكتاب أنه يُقدِّمُ أو يروم تقديم بديل لهذه المعالجات. غير أنها -بحكم طبيعتها- معالجات موضوعاتية تركز علىٰ موضوع مجزَّأ؛ فغاب مطلب التأريخ الشامل، الذي من دونه لا يصبح التاريخ الجزئي مُدْرَكًا تمامًا. وفي هذا الإطار نبعت معظم الأعمال الأكاديمية المهمة التي كتبها كل من الباحث الإنجليزي أيتش تي نوريس منذ ستينيات القرن العشرين وما بعدها، والباحثين اللاحقين أمثال: تشارلز ستيوارات، وجايمس ويب، ورايموند تايلور، ودزيري فويلمان، وبيير بونت، وعبد الودود ولد الشيخ، ويحيىٰ بن البراء، وددّود ولد عبد الله، وغيرهم ممن سلّطوا الأضواء علىٰ جوانب من التاريخ الموريتاني من مناظيرهم الأكاديمية التاريخية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية.

ومن الواضح أن هذه الأعمال سبرت كثيرًا من الأغوار غير المطروقة سابقًا، ولكن طابعها الجزئيّ يجعلها لا ترضي الغاية التي يتوق إليها كل من بَحث عن صورة شاملة ومتنوعة لتاريخ الصحراء. ويمكن القول إن معظم الأعمال الأكاديمية نحت هذا النحو، إلا ما كان من الأعمال الرائدة للمؤرخ وعالم الاجتماع عبد الودود ولد الشيخ الذي عالجت رسالته للدكتوراه -المكتوبة بالفرنسية بعنوان: «**البداوة والإسلام والسلطة السياسية في مجتمع البيضان فيما قبل الاستعمار (١٩٨٥)**»- جوانبَ كبيرة من التاريخ الموريتاني، ثم عاد بعد

سنوات فقدم مقترحًا ودعوة للتأريخ الشامل في كتابه الصادر بالفرنسية بعنوان: «**عناصر من التاريخ الموريتاني (١٩٩١)**». ولم يتم الاستجابة لدعوته إلا في القرن الحادي والعشرين، حيث ظهر اهتمام ملحوظ بالتاريخ العام لموريتانيا. ومن هنا ظهرت أعمال حماه الله ولد السالم في كتاب صغير الحجم بعنوان: «**تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية (٢٠٠٧)**»، وكتاب الحسين بن محنض المعنون بـ: «**تاريخ موريتانيا (٢٠١٠)**»، والتحقيق المهم لكتاب المختار بن حامد: «**حياة موريتانيا: حوادث السنين**» لسيدي أحمد بن أحمد سالم (ولد الأمير) (٢٠١١)، الذي أضاف فيه مجهودًا غنيًا في هوامشه.

إلا أن هذه الأعمال -علىٰ أهميتها- بقيت لا تستجيب لحاجيات كثيرة؛ فقد بقي أغلبها «تاريخًا كبيرًا» يهتم بالدول والسلطات أكثر مما يهتم بأصوات الشعوب والمسحوقين باعتبارها أصواتًا ثانوية، إضافة إلىٰ هجانة التواريخ الشعبية والأكاديمية في بعضها. وقد غاب تاريخ الشعب -كمقابل للسلطة- من معظمها، وإن كانت أعمال عبد الودود ولد الشيخ قد أجابت عن بعض الاكتنافات التي تعتري هذا الإطار، وخصوصًا في جوانب دراسة الهوية الصحراوية وتشكُّل الأنساب. غير أن مشاعر الشعب وشكله وروحه وتغيرات نُظُمِه ومعيشته بقيت غير ممسوسة في بقيّة الأعمال. وربما يعود هذا إلىٰ عدم توظيف كثير من المصادر الأساسية التي ظلّت غائبة عن معظم المؤرخين.

إن كتابي هذا يأتي في إطار المساهمة في كتابة التاريخ الصحراوي من هذا المنظور الشامل والشعبي. ولكنه في الوقت نفسه ليس مجرد تاريخ عموميات. لقد أردتُ بهذا الكتاب تأدية عدة واجبات أولها توظيف معطيات غير مألوفة لمعظم المؤرخين الذين كتبوا تاريخ موريتانيا، فعثرتُ علىٰ مصادر أجنبية تسلّط الضوء علىٰ حوادث كثيرة من حياة الشعوب الموريتانية كنتُ أول من استخدمها، وهو ما فعلته حتىٰ في بعض المصادر الأساسية المعروفة، ولكن غير المستنفذة، التي بقت لعقود لا توظّف إلا في إشارات سريعة كأعمال الرحالة الإيطالي كاداموستو والبرتغالي فرناندس.

وقد انصبَّ اهتمامي أيضًا علىٰ نقطة أخرىٰ لا تبدو لي دونيّةً في الأهمية: وهي تقديم كتابة تاريخ مقروء، وأقصد به تقديم التاريخ الموريتاني في أسلوب سردي

يجعل القارئ غير المتخصص يجد فيه ما يغريه بقراءته. فقد عدتُ بذاكرتي إلىٰ أيام صباي التي صدتني فيها كتابات التاريخ الموريتاني عن قراءته، لما فيها من تعقُّد في سرد الأنساب وجفاء في الأسلوب. ويمكن القول إن جزءًا كبيرًا من غموض التاريخ الموريتاني يعود إلىٰ الطابع التشفيري الذي كُتب به، مما ألجم المُطالعين العاديين عن طَرْقِه واستلهامه؛ فأصبح معظم الشعب جاهلًا بتاريخه، غير حاسٍ به.

علىٰ أن هذا الاهتمام السردي وضعني في تحدٍّ آخر، وهو الاستجابة للتحدي الأكاديمي بمعالجة الإشكاليات ومواضع الجدل، ومن هنا جاء حرصي علىٰ التوثيق والمساجلة وتقديم أطروحات بديلة لمعظم الأطروحات السابقة دون أن أتركَ جانبًا اهتمامي بتقديم المساجلة الأكاديمية في قالبٍ سردي، آملُ أنّه مستساغٌ ومغرٍ. وقد طرقتُ فيه قضايا الهوية والتراتبية والتشكل النسبي، وغيرها من القضايا التي فُرضت المحارم والتابوهات بخصوصها. ويتعين عليّ أن أقرّ أن عملي تذبذب بين هذه الحاجيات، فربما وقع في خاطِر بعضها علىٰ حساب بعضها الآخر. لقد قيّدتني كثرة المصادر، التي حرصتُ علىٰ توفيرها في الاستشهاد والإحالة؛ لما في التاريخ الموريتاني من لجاج وحِجاج ومراقبة ومطالبة بالمصدرية تجعل من الصعب التحرُّك خارج الإحالات؛ غير أنني حرصتُ -وأنا أستجيب لمسؤولية التحدي المغاير لهذا التقيُّد بالمصادر والإشكاليات التاريخية الجديّة- ألا يأتي علىٰ حساب تقديم التاريخ في شكل قصة قابلة للسرد.

أما فيما يخص التاريخ الحقيقي -تاريخ الشعوب- ففي الوقت نفسه الذي اهتممتُ فيه بالتاريخ العالي للممالك والدول والشخصيات، فإنني عدتُ إلىٰ تاريخ الشعوب فطرقته واستفدتُ فيه من وثائق قديمة؛ فقدّمت بها صورة عن الهويات والرغبات والتنوعات في الصحراء، وسبرت بها ما كان غامضًا عن حياة الشعب وأشكاله وأحاسيسه وتراتبياته وامتزاجه.

أبو العباس ابرهام

توسون - أريزونا

مايو، ٢٠١٤

خرائط توضيحية

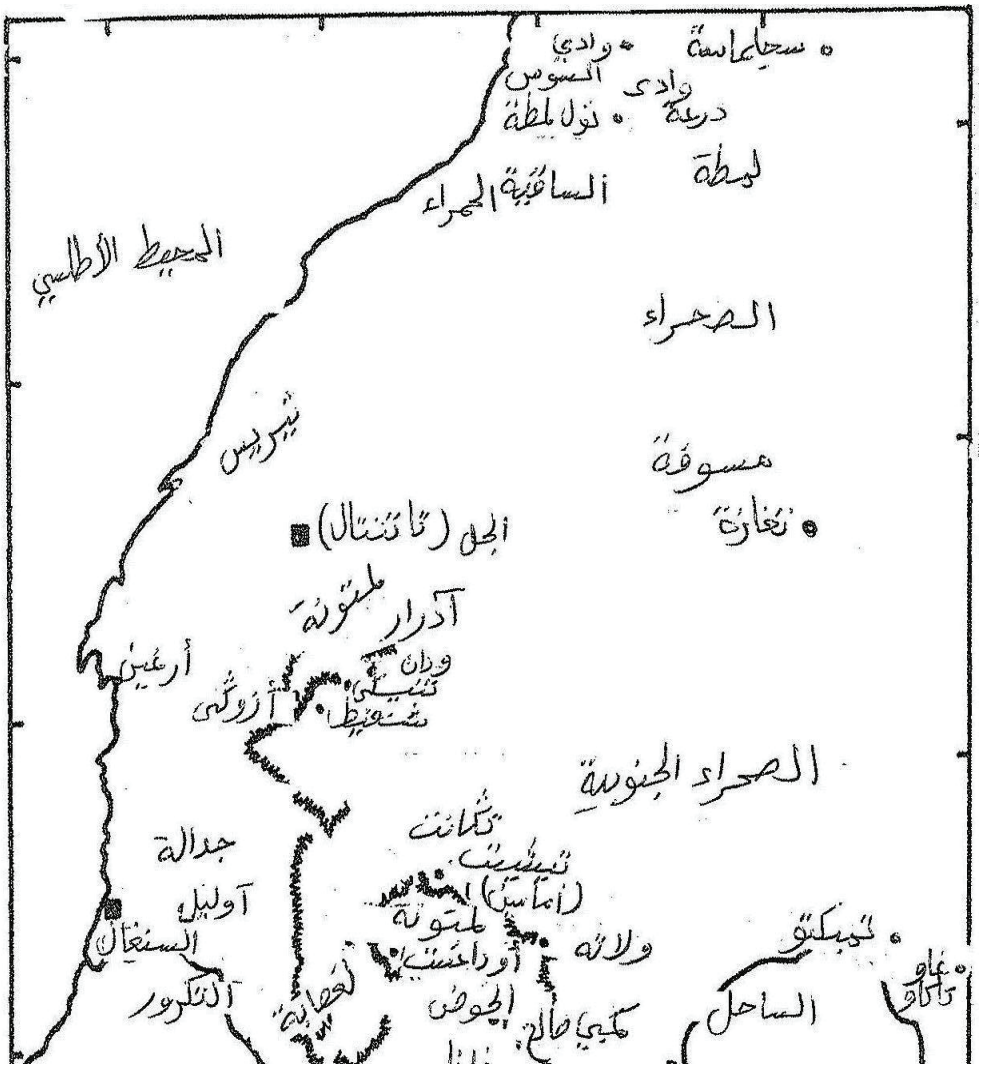

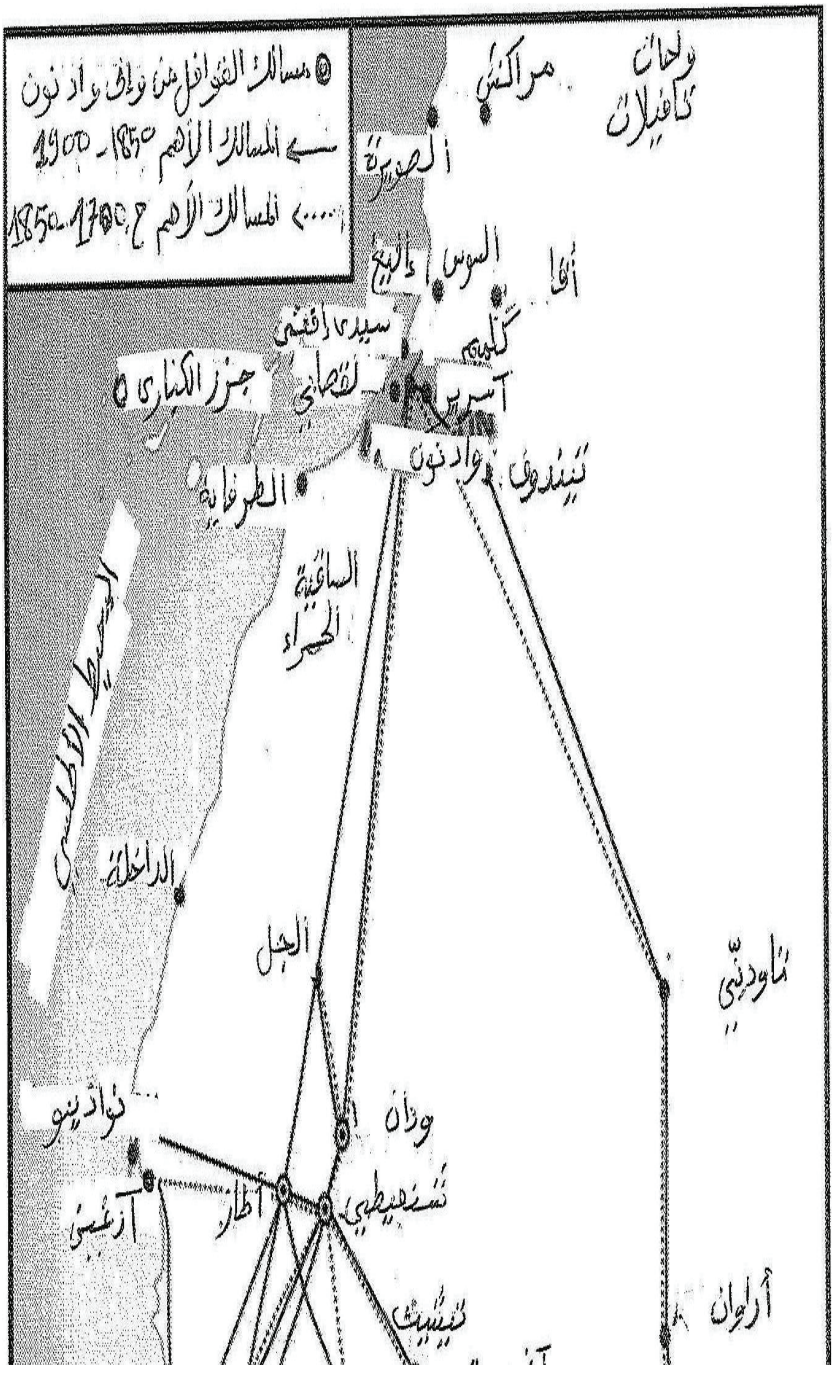

مسالك القوافل من وإلى واد نون
المسالك الأهم 1850-1900
المسالك الأهم ح 1700-1850
مراكش
واحات تافيلالت
الصويرة
السوس
إليغ
أقا
كلميم
سيدي إفني
لقصابي
آسرير
جزر الكناري
واد نون
تيندوف
الطرفاية
الساقية الحمراء
المحيط الأطلسي
الداخلة
تاودني
ودان
نواذيبو
شنقيطي
أطار
آرغين
تيشيت
أراوان

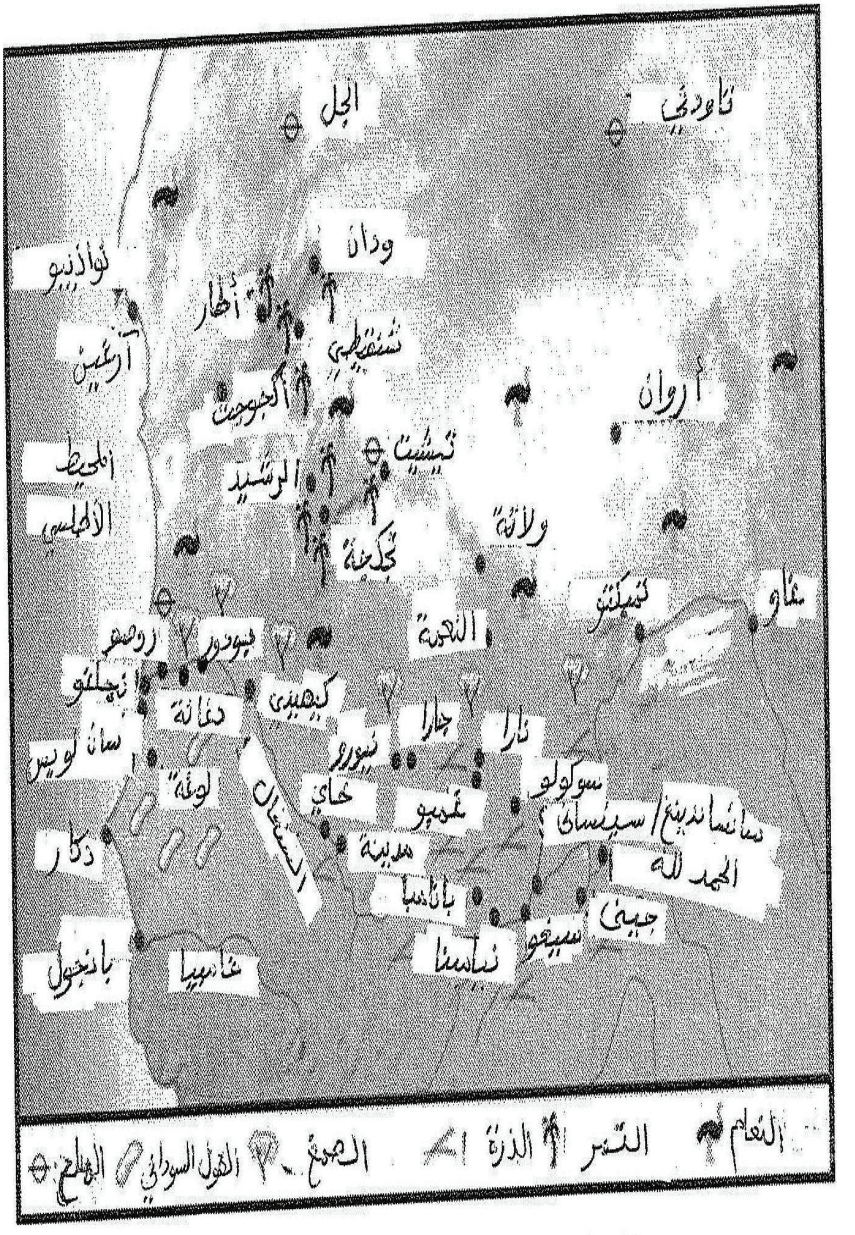

المصادر في الصحراء وغرب إفريقيا

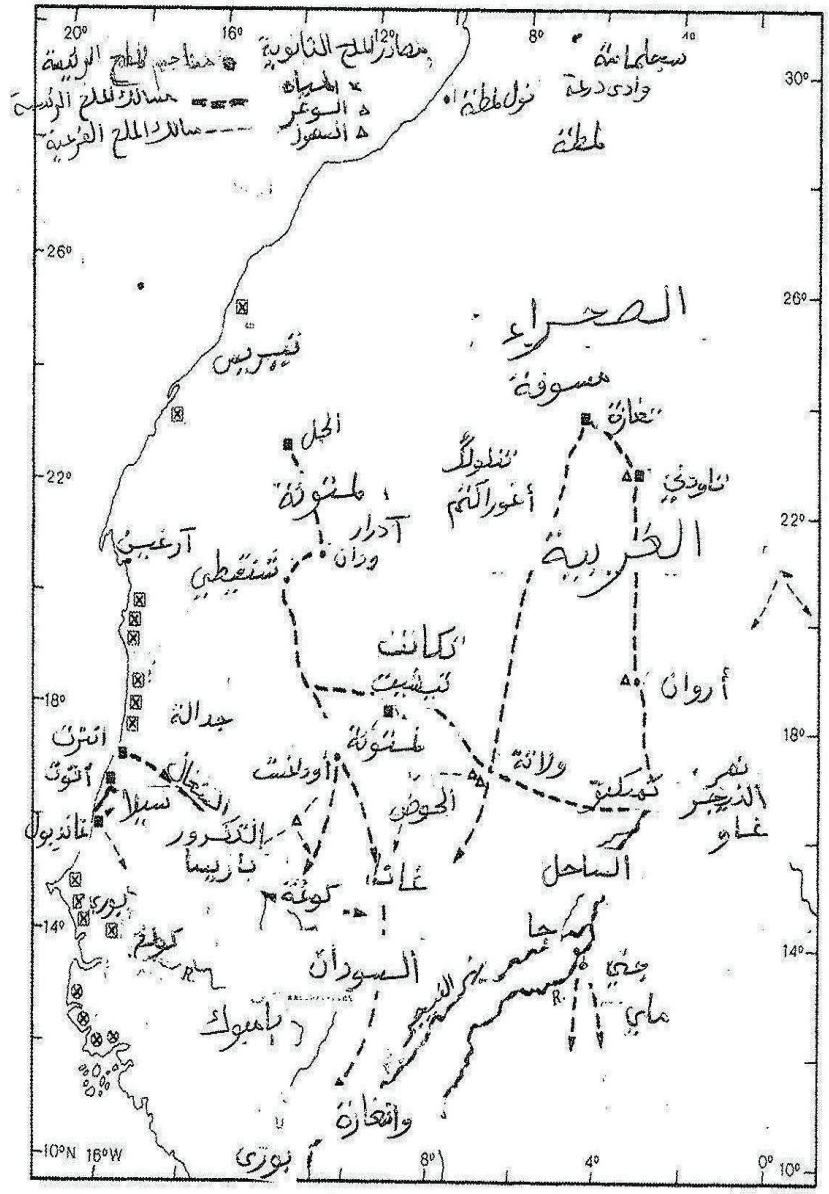

مسالك قوافل الملح ومصادره (حوالى 1000 - 1700 م)

المصدر (٢) ماكدوغال

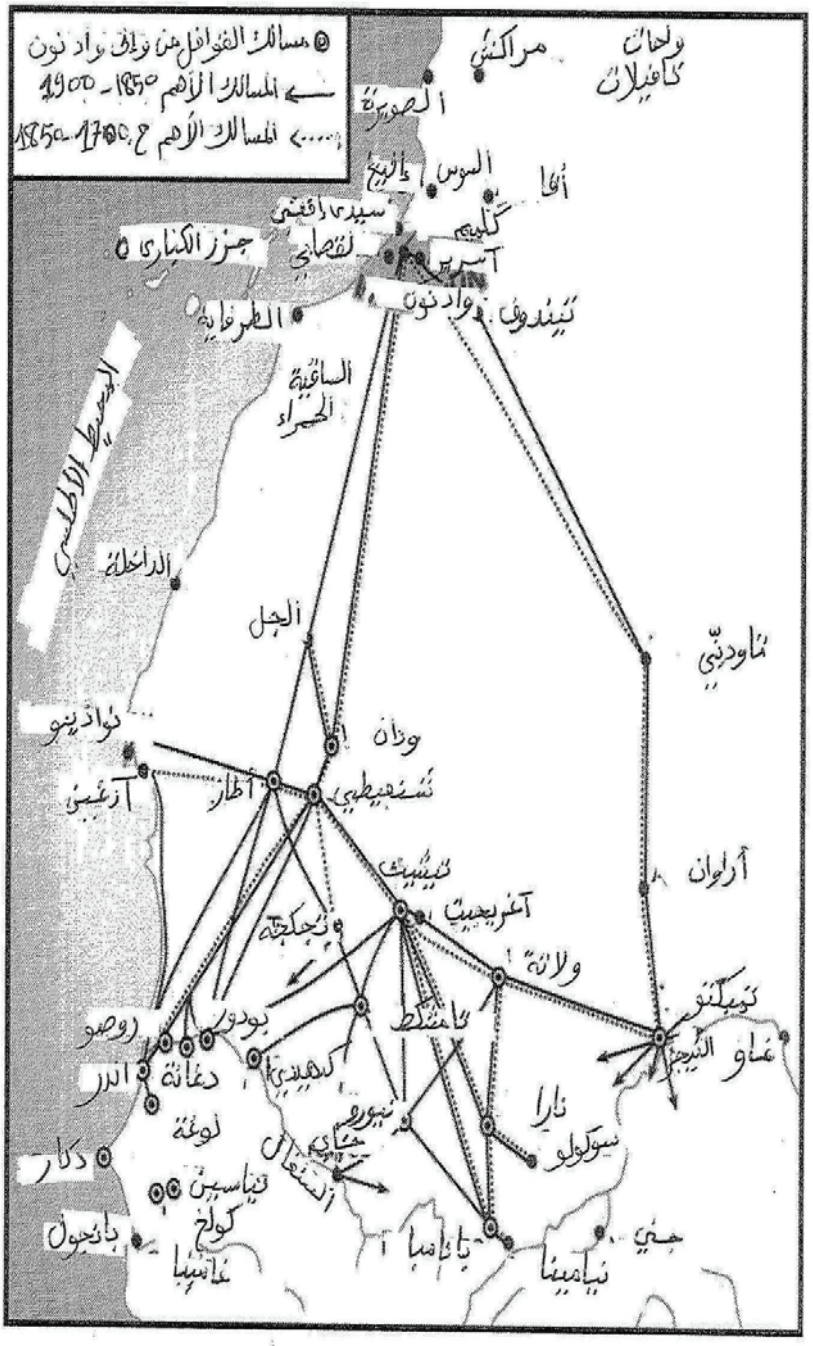

مسالك القوافل من وإلى واد نون
المسالك الأهم 1850 - 1900
المسالك الأهم ح 1700 - 1850
مراكش
واحات كافيلال
الصويرة
السوس
أكا
كلميم
سيدي إفني
آسرير
واد نون
تيندوف
جزر الكناري
الطرفاية
الساقية الحمراء
المحيط الأطلسي
الداخلة
الجل
تاودني
نواذيبو
وادان
أطار
شنقيطي
تيشيت
آغريجيت
أراوان
ولاتة
تمبكتو
النيجر
كاو
بودور
روصو
دغانة
لوغة
نارا
سيكولو
داكار
تياسين
كولخ
بانجول
غامبيا
بامبا
نيامينا
جني

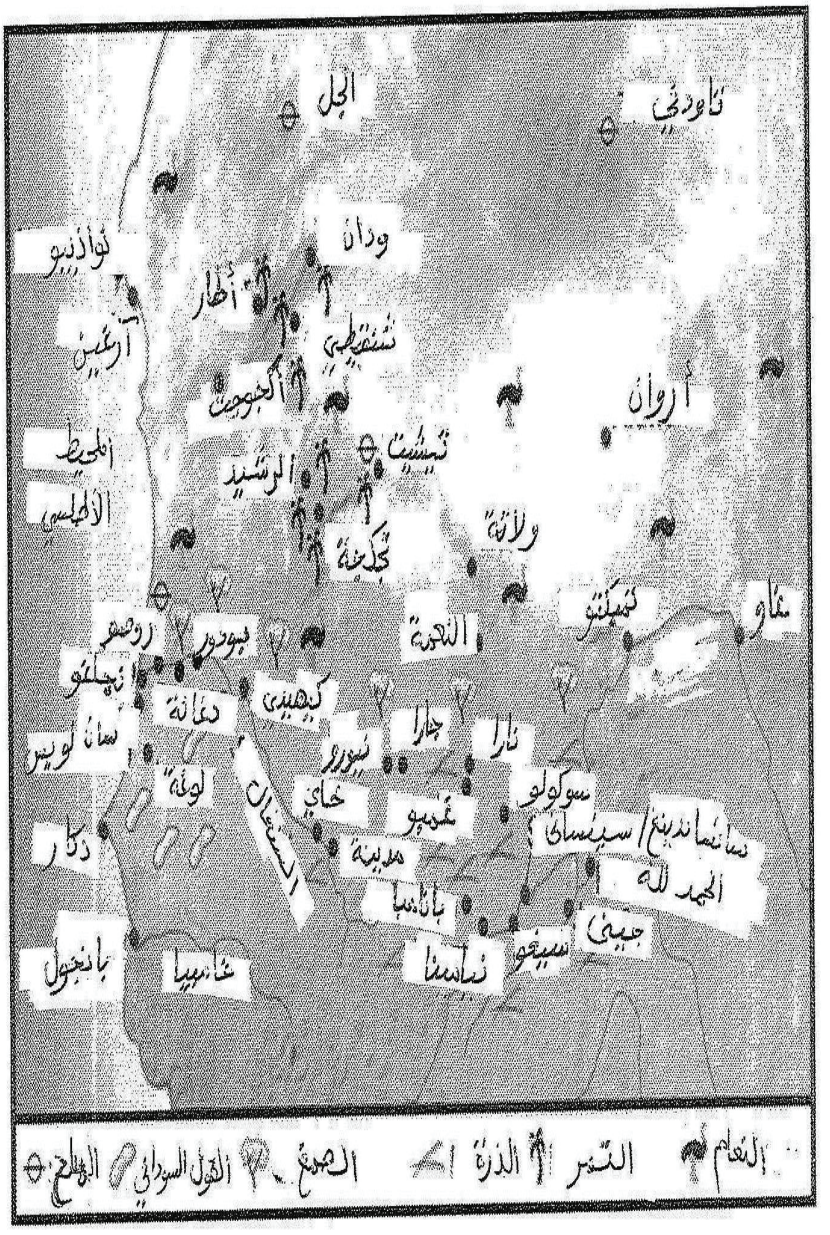

المصادر في الصحراء وغرب إفريقيا

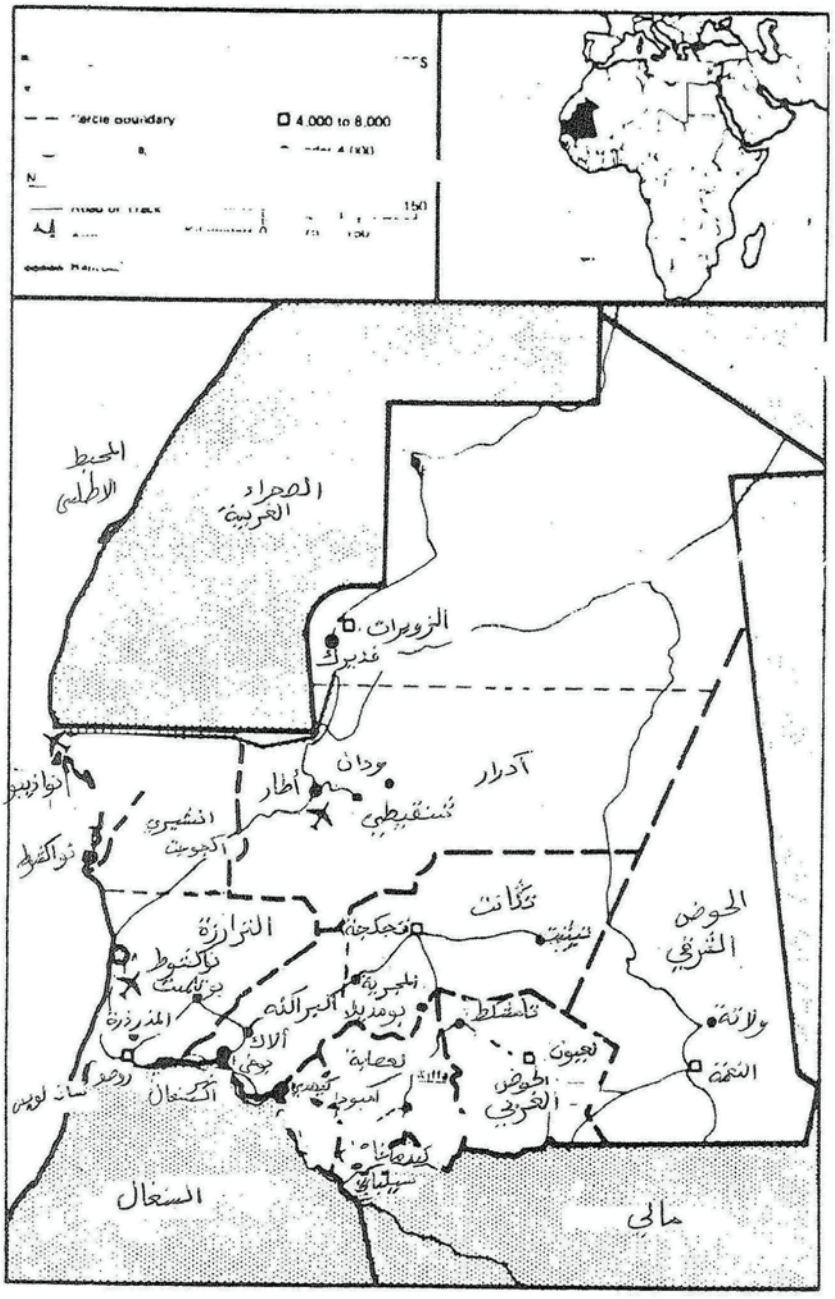

موريتانيا المعاصرة

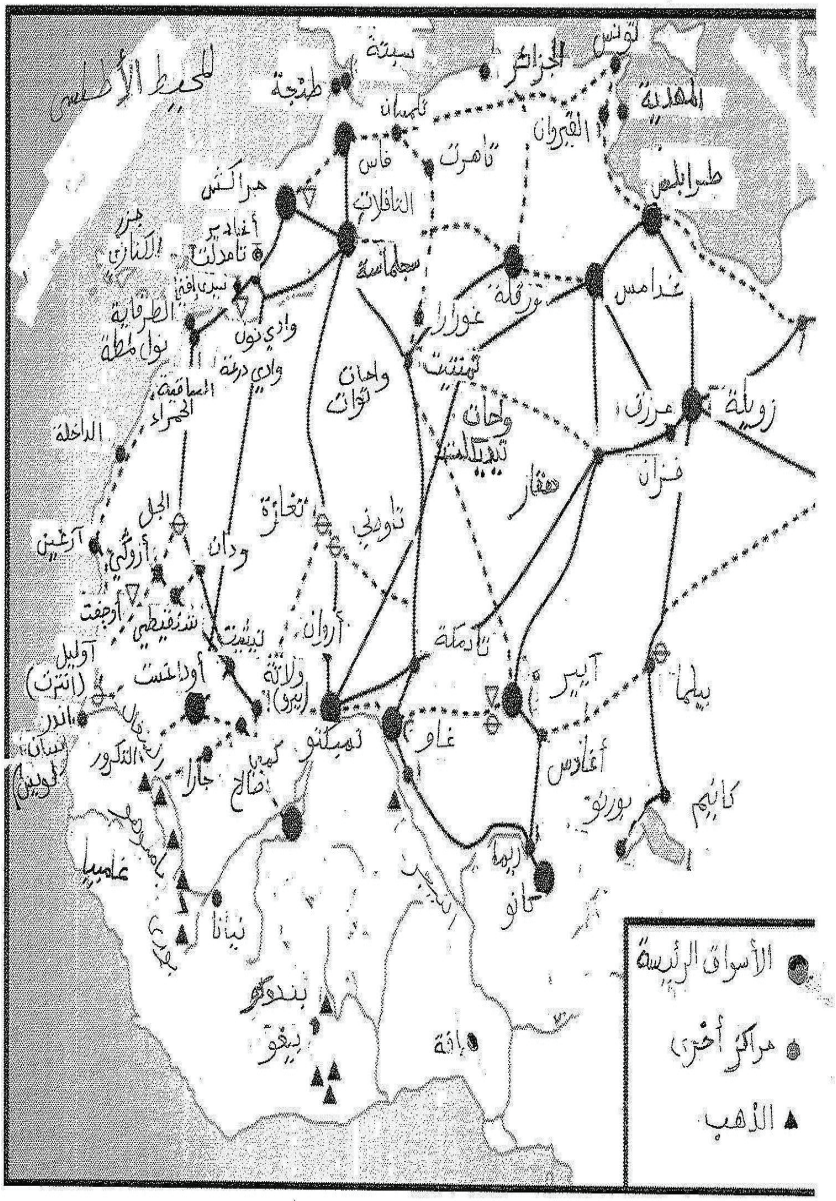

الصحراء وسالك التجارة فيها ما بين القرن 9 و القرن 19

المصدر: هوريس فارياس

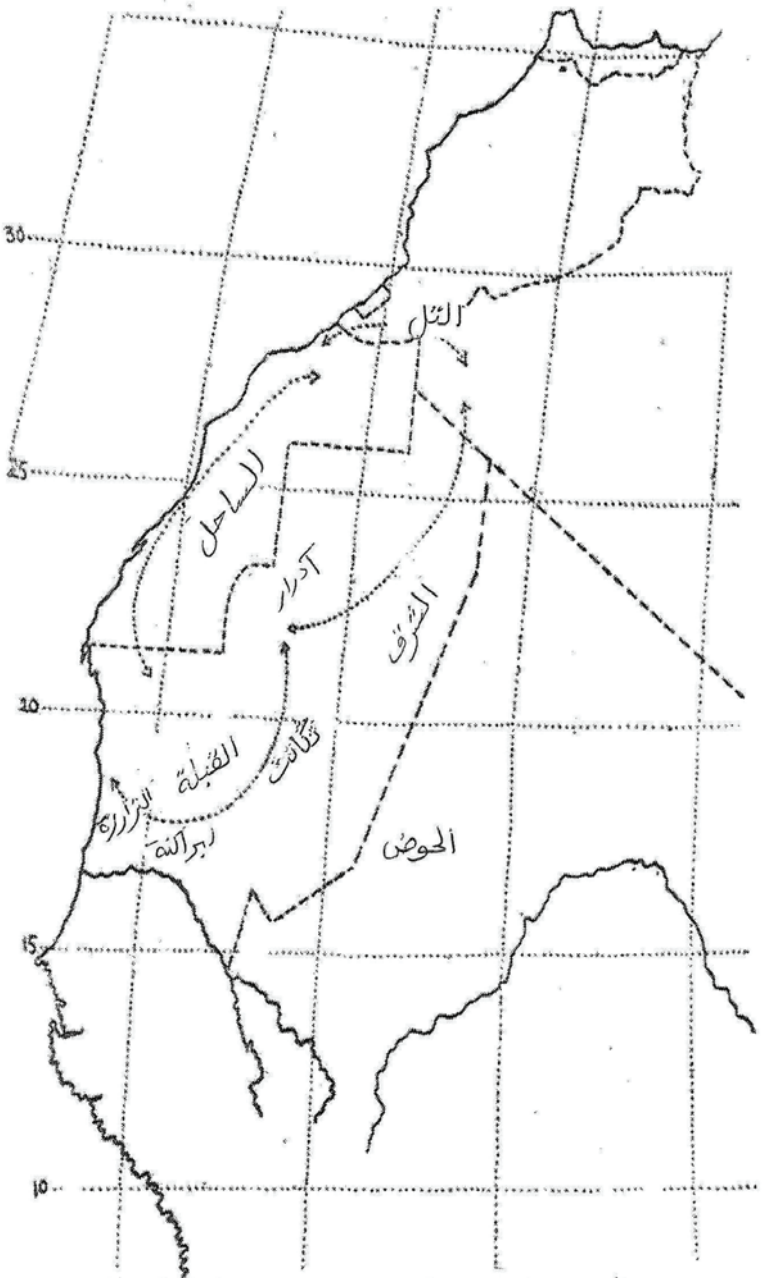

الجهات في الصحراء (المصدر غوليو كارو باروخا) .

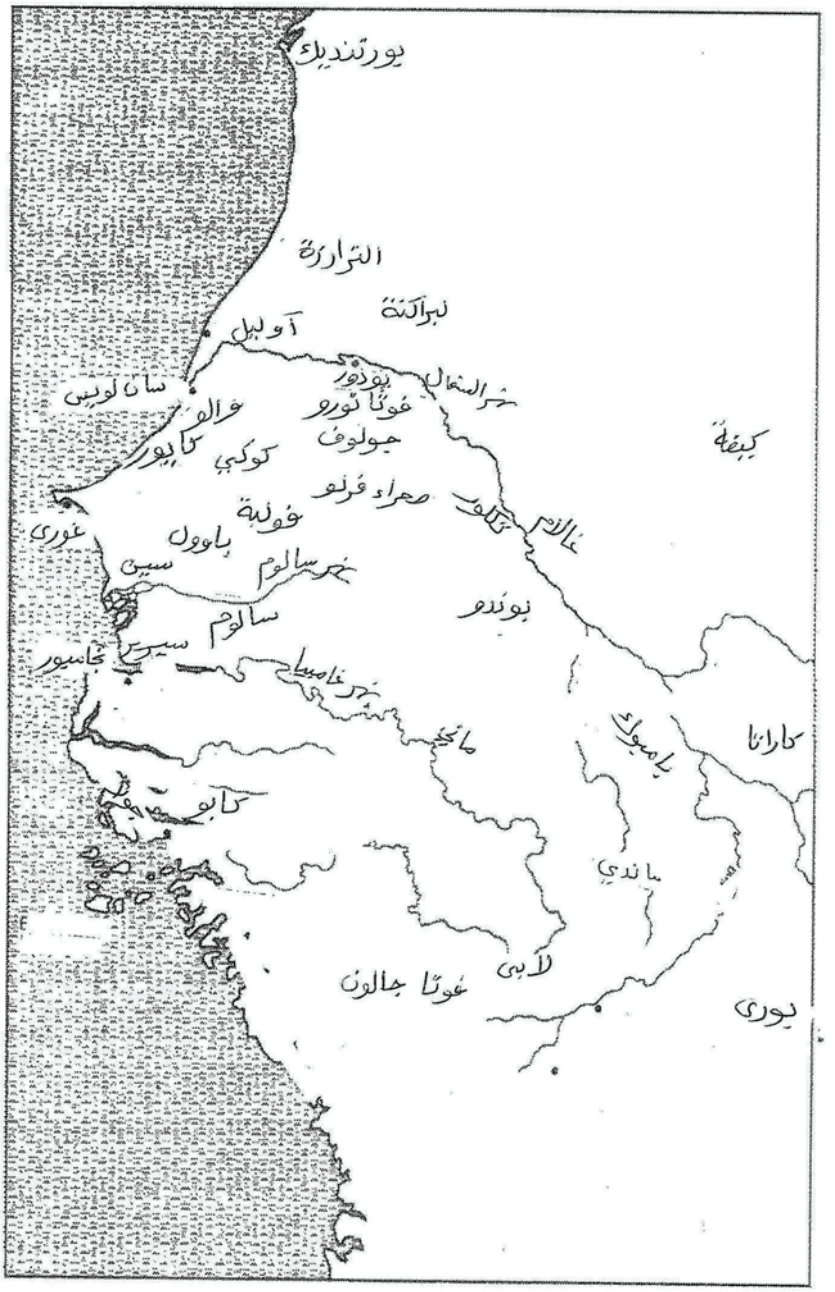

السنغامبيا مابين القرنين السادس عشر والثامن عشر

القسم الأول

الأصـــول

- ١ -

الأصول (حوالي ٦٠٠٠٠٠ عام ق.م -٣٠٠٠ ق.م)

«أنَّ الكون لا تَعلُّقَ له بعلم الذات أصلًا، وإنما مُتعلقُه العلِم بالمرتبة»

ابن عربي

في بداية ثلاثينيات القرن العشرين، عندما كان مجال موريتانيا يقع تحت السيطرة الفرنسية، جلس أحد شيوخ البيضان[١] مع طبيبٍ استعماري له اهتمامات جانبية بجمع الآثار والروايات التاريخية الشفاهية «الموريتانية»، هو الدكتور ليكا، وحدّثَه عن ماضي البلاد السحيق كما عرفته ذاكرة الشعب البيضاني. قال له:

في القديم، منذ حوالي ألفَيْ عام، كانت موريتانيا مسكونة من قبل

(١) تبدو صفة «البيضان» ذات الإرث العربي -حيث استخدمها الجاحظ (ت ٨٦٨م) لتعني الشعوب «البيضاء» وذلك في رسالته «فخر السودان علىٰ البيضان»- مفهومًا شاملًا عابرًا للعرقية في الوقت نفسه الذي يرتبط فيه بخصائص لونية وثقافية معينة. وهذا في الحقيقة هو تقريبًا نفس استخدام الصفة في المجال الموريتاني، حيث أصبح مفهوم «البيضان»- أو «البيظان» كما يُنطق محليًا - تعبيرًا عن حالة الهوية القومية-الثقافية التي نجمت في القرون ما بعد الوسيطة لانصهار مجتمعَيِ العرب والبربر، وفي أحيانٍ معينة، من رافقهم أو لحق بهم من عشائر السودان التي تمّ إلحاقها بالثقافة المختلطة بينهما، والتي ستصبح ثقافة «البيضان». ومنذ ما بعد القرن السابع عشر، وربما قبل ذلك، سيصبح مجال البيضان هذا مجالًا حيويًا ذا صبغة هوياتية معينة انصهرت في اللغة العربية وعادات الخلاصة البربرية-العربية وتفاعلها مع الأغيار علىٰ مرّ العصور اللاحقة. إن «البيضاني» بهذا المعنىٰ هو العربي البربري القاطن في مجال الصحراء الفسيح في موريتانيا وجنوب الجزائر والصحراء العربية ومنطقة أزواد شمال مالي وفي بقع معينة في السنغال والنيجر. وهو المَعنىٰ نفسه المُستخدم في الإحالات الغربية علىٰ المور، Moors أو Maures.

السود من واد نون إلىٰ عبديك. وكانت القرىٰ كثيرة وما زالت آثارها في أوكار وإنشيري وتيريس. وفي تلك الأوقات، كانت البلاد بعيدة من أن تكون بالجفاف التي هي عليه الآن. وكانت بها البحيرات في أوكار وفي أفطوط التي كانت تبدأ من سهوة الماء في إنشيري إلىٰ الجروف الصخرية التي تحدُّ آدرار، وفي الفاية كانت بها أنهر وقرىٰ كثيرة. وفي الشمال كانت ثمَة واحات النخيل علىٰ الحدود مع وادي درعة، ومن هنا أتىٰ الوادي باسمه الذي كان يعني الجمال بالبربرية. وكانت الساقية الحمراء عبارة عن حقول كبيرة من القمح والشعير. ولكنني لم أسمع أنه كانت توجد بها كروم العنب. وفي ذلك الوقت، كانت قرىٰ آدرار مملوكة من قِبل السود وكان بإمكان المرأة أن تسير من آدرار إلىٰ أندر [سان لويس، السنغال] من دون الحاجة للتزوّد بالماء في القِرَب[1].

لم يكن الشيخ البوحسني يهذي. ورغم أنه لم يكن يقدّم إلا حكاية شفاهية تناقلتها الأجيال طويلًا في الصحراء، إلاّ أن صورة البلاد الخصبة، البعيدة من جفاف الصحراء وتقشُّفها، كانت قائمة بالفعل في القرون السحيقة فيما نعرفه اليوم باسم موريتانيا، وما عرفه العرب والغربيون عبر التاريخ بالصحراء. بل إن الدراسات الحديثة تشير إلىٰ حياة خصبة لما هو أبعد مما سجلته ذاكرة الشعوب البدوية في الصحراء. ولا تكاد هذه الدراسات تختلف كثيرًا عما تلفظ به الشيخ البيضاني، إلا باستثناء حديثه عن تمدّد سكاني غير منقطع من سان لويس جنوبًا إلىٰ وداي درعة شمالًا؛ وهو أمر تَبقَىٰ الدراسات الأثرية عاجزة عن تأكيده، وإن كانت دراسات حفرية تشير إلىٰ تمدُّدٍ قروي نِسبي في المنطقة الممتدّة من تيشيت جنوب وسط موريتانيا حتىٰ ولاتة شمال مالي.

منذ آلاف السنين لم تكن المنطقة المعروفة حاليًا بموريتانيا أرضًا جدباء غالبًا تتخلّلها مناطق موسميّة الخصوبة كما هي الآن. وتحديدًا، منذ قرابة عشرة آلاف عام (٨٠٠٠ عام قبل الميلاد)، كانت الصحراء الكبرىٰ في الساحل وغرب إفريقيا ووسط الصحراء منطقةً رطبة وخصبة. نعرف هذا الآن بفضل التقنيات الجديدة من

(1) A. J.Lucas, "Considérations sur l'ethnique maure et en particulier sur une race ancienne: les Bafours," *Journal de la Société des Africanistes*, 1931, tome 1 fascicule 2, p. 158.

المسح الفضائي والحفريات، التي وسّعت معرفتنا القديمة بتاريخ الصحراء وصالحتها بالمرويات والمتخيلات لماضٍ تليد من الوفرة والخصوبة. كانت المنطقة الواسعة الجدباء حاليًا فيما يعرف بالمجابة الكبرىٰ وتَاوْدّني وآوْكَارْ مناطقَ تغمرها بحيراتٌ كثيرة في الفترة الطويلة الممتدّة ما بين ١١٠٠٠ق.م إلىٰ ٣٠٠٠ ق.م، وهو ما سمح بحياةٍ مستمرة فيما سيعرف لاحقًا بالصحراء[١]. وإذا كانت ثقافة المجموعات الصحراوية تحيل دومًا إلىٰ ماضٍ خصب بالبلاد، فإن الذاكرة الجمعية عاجزة عن استبقاء معطيات عمرها آلاف السنين؛ وفقط مع البحوث الأخيرة للاستكشافيين تمّت الإبانة عن تفاصيل التاريخ الخصب لعموم منطقة الصحراء الكبرىٰ التي تمتد الآن وسط موريتانيا وشمالها منبسطة شرقًا حتّىٰ الصين في أطول صحراء في العالم، وربما في التاريخ.

يبدو بحسب المعلومات المتحصّلِ عليها بالمسح الفضائي والمُستنِدَة علىٰ الحفريات، أن المنطقة مرّتْ بمرحلتين من الخصوبة؛ الأولىٰ تمتدُّ من الفترة ٨٠٠٠ قبل الميلاد وتنتهي في الفترة ما بين ٦٠٠٠ و٥٠٠٠ قبل الميلاد، عندما عاش عموم المجال ألفية جدباء. ثم استأنفت الخصوبة واستمرّت قائمة حتىٰ الفترة ٣٠٠٠ ق.م، مُفسِحةً المجال لجفافٍ متقادِم يبدو أنه أسفر عن انتشار الصحراء وتوسُّعها. وسرعان ما طَمَرت أبحر الرمال الأنهرَ والبحيرات المائية العديدة التي استطاع العلماء الكشف عنها بالفحص الإشعاعي بواسطة الرادار[٢].

❁ ❁ ❁

أما بالنسبة إلىٰ الحياة العاقلة أو ما قُبيل العاقلة، فهي تعود إلىٰ ما قبل فترة

---

(1) Robert Vernet, *La Mauritanie: des origines au debut de l'histoire*, Nouakchott: Centre Culturel Français,1989, p.46.

(٢) تم تعميق هذه المعلومات بعد بحوث ميدانية بالساتلايت والتكنولوجيا الحفرية، قام بها العالمان الأمريكيان كيفين وايت -من جامعة ريدينغ- ودافيد ماتينغلي -من جامعة لايسيستر-، وقد نشرت أولًا في مقال علمي رصين في مجلة

American Scientist magazine,".

Kevin White and David J. Mattingly, "Ancient Lakes of the Sahara," *American Scientist*, 2006, 94 pp. 58-65

التحسن البيئي كثيرًا. ولعلّ أقدم آثار الحياة الإنسانية في المنطقة هي أولىٰ الآثار الإنسانية في التاريخ التي وُجِدت في المناطق المدارية الإفريقية، كما اقترح ذلك تشارلز داروين وتوماس هكسلي وأكّدتها الحفريات لاحقًا[١]. في المنطقة المدارية العامة التي تقع فيها موريتانيا وُجدت آثارُ فصائل شبه إنسانية، وفي هذه المنطقة الإفريقية الواسعة المُمتدّة من شرق إفريقيا حتىٰ وسطها بدأت ملحمة التطور الإنساني من خلال جدلية التأثير ما بين البيولوجيا والطبيعة والثقافة[٢]. وفي المليون سنة الأولىٰ فيما قبل الميلاد، كانت الحركة ما قبل -الإنسانية الأولىٰ[٣] مرتبطة كثيرًا بالتحسّن البيئي، ويبدو أن شبه- الإنسان الأوّل كان يتحيّن فرص تحسُّن البيئة للخروج من براثِنه وللتنقل، وهو ما أوصله مبكرًا إلىٰ القارة الأوروبية وآسيا وإلىٰ الغرب باتجاه إفريقيا الشمالية وباتجاه مجال موريتانيا ونواحيه[٤].

يبدو أنه باتجاه الوصول إلىٰ المجال الموريتاني وُجدت آثارٌ تعود لما قبل المليون ونصف المليون عام، آثارٌ لما سيعرف بالإنسان الماهر في منطقة عين حنش الواقعة في الجزائر الحالية. تعود هذه الآثار للعصر الحجري الأول. كان الإنسان الماهر أقدم إنسان قادر علىٰ صناعة المواد أو نحت الأسلحة من الأشجار والحجارة. كان طوله أربعة أقدام (مترًا وعشرين سنتيمترًا)، وكان يزِنُ قرابة الخمسين رطلًا (٢٢,٦ كليغرامًا). يبدو أنّه كان إنسانًا ضئيلًا بلا ذقن، وبفكّيْنِ عريضَيْنِ، وبجبهة متأخِّرة للخلفِ يعلوها حاجبٌ عظمي عريض يجعله شبيهًا بإنسان الغاب. ويُعتبر أحفاد الإنسان الماهر أوّل الفصائل التي تركت آثارًا في المجال الموريتاني، وتدلُّ الآثار الموجودة في المنطقة أن حضور هذا الإنسان الصانع امتدّ من الجزائر إلىٰ المغرب إلىٰ الصحراء الغربية[٥]، ثم تشعّب حضوره

---

(1) Chris Stringer, "The Evolution of Man," *New Scientist*, 1982, vol15, pp. 152-156.

(2) Clark Howell, "Origin and Evolution of African Hominida," In J. D. Fage and Ronald Oliver, eds, *The Cambridge history of Africa: From the earliest times to c. 500 BC*. Cambridge: Cambridge University Press, 1982, Vol1, pp. 70-156, p. 82.

(٣) نقصد بها الحركة البشرية الأولىٰ لما قبل ظهور الإنسان العاقل.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٢. وأيضًا:

(5) John Mercer, *Spanish Sahara*, London: George Allen & Unwin Ltd, 1976, p. 52.

من الشمال إلىٰ الجنوب الموريتاني. وبشكلٍ عام كان الناس المهرة فصيلة نشطة ومُجِدّة، وقد تركت آثارًا تدل علىٰ صراعها مع الطبيعة وعلىٰ مهارتها في الاستفادة من الآثار حولها. في تيريس -شمال موريتانيا- صعودًا باتجاه نهر درعة وفي السمارة ونواحيها في الصحراء الغربية، وُجدت آثار لحجارة المرو (الكوارتز) مصقولةً ومدبّبَة بما يُنبِئُ بالحياة القتالية أو الصيدية لإنسان موريتانيا فيما قبل العصور.

لم ينبع هذا الانسان الماهر من الفراغ. ولم تكن قدرته التقنية اختراعًا خاصًا به رغم الاسم الذي أعطته له الحفريات. ولكن ظهوره في المجال الموريتاني تأخّر لآلافِ السنين عن ظهوره في القوقاز وشرق شمال إفريقيا[1]؛ إذْ تعود أقدم آثاره في الصحراء إلىٰ ٦٠٠٠٠٠ عام ق.م. وقد بقيت آثاره نشطة في شمال البلاد التي قدم إليها مستغلًا التحسن الحراري، وبدأ في استيطان المنطقة الشمالية من ازويرات (واد أكرداي) إلىٰ شمال الوسط في ودان، وأخذ في نحت مواد وآليات من الصخور من خلال حكِّها ببعضها للحصول علىٰ أدواتٍ حادة. وهذه هي أقدم آثارٍ للفصائل شبه الإنسانية في هذه المرحلة في عموم المنطقة[2].

❁ ❁ ❁

في الفترة ٤٠٠٠٠٠ إلىٰ ٣٠٠٠٠٠ ق.م، بدأ يبرزُ تطوّرٌ نوعي في الفصيلة ما قبل -الإنسانية في المجال؛ تطوَّرَ إبداعُها في الآلات المصنوعة. أما فيما يتعلّق بذات هذا «الإنسان»، فقد دَخَل في ملحمة طويلة من التكيّف والتحوّل إلىٰ الإنسان الذي سيعرف بالمنتصب. تُسمّىٰ هذه الفترة بالفترة الأشولية التي حدثت فيها الثورة البروموثيوسية الكبيرة المتمثِّلَة في اكتشاف الإنسان للنار واستغلالها في تطويع الطبيعة. كان العصر الأشولي عصر ثقة جديدًا في حياة إنسان الصحراء الذي بدأ في الانتشار في عمقها. وتدلُّ الآثار أن أشوليي المجال كانوا

(1) William A. Haviland, et al, *Evolution and Prehistory: The Human Challenge,* Wadworth: Cenagage Learning, 2011, p. 183.

(2) De Valicourt, *Mauritanie,* Paris: Edition Marcus, 2000, p. 9.

مجموعات من الصيادين الرُّحَل الذين بدأوا في هجر الصخور المنحوتة بالاحتكاك إلىٰ صناعة السواطير والمكاشط الصخرية[١]. وفي آدرار طوّر الإنسان المنتصب من التّقانة البدائية وأخذ يعدُّ آلات أكثر تطورًا، ولعل الفأس الحجري ذا المقبض كان أكثرها انتشارًا، والذي يبدو أنه قام مقام الحجارة المدبّبة القديمة[٢]. في منطقة لَبْيَظْ (الأبيض) توجد آثار هذا الإنسان قرب البحيرات، ما يدلُّ علىٰ حياته في فترة التحسن البيئي[٣].

❁ ❁ ❁

في الفترة ٥٠٠٠٠٠-١٥٠٠٠٠ عام قبل الميلاد، بدأ الانسان الأشولي يظهر في الصحراء الغربية، شمال غرب موريتانيا، وبدأ مع هذه الفصيلة نوع جديد من الحياة تمثّلَ في ظهور الإنسان المنتصب بنوعه المعروف بالتشادي المغربي. كان هذا الإنسان قد استطالَ مترًا ونصف المتر فزاد بقدَمٍ علىٰ سالفه، وكان له وجهٌ أشبه بإنسساننا الحالي، كما حظي بجمجمة وبدماغٍ أوسع مما كان عند أسلافه. هو نفسه الإنسان المعلمي الذي وصفه داروين بأنه خرج من الغابة وأصبح منتصبًا شيئًا فشيئًا وتحرّرت يداه[٤]. ويلائم هذا الوصف حياة الإنسان المنتصب في موريتانيا؛ إذ تدل الآثار بأنه لم يعد يعيش في الغابة، بل تزامن وجوده في مواقع أزراكَ ولبيظ في آدرار الموريتانية وبير النصراني وبير تاشكنت في الصحراء الغربية، مع فترة تصحُّرٍ قوية تمدّدَ فيها إلىٰ قرب البحيرات والأنهر والبِرَك البعيدة[٥]. وربما كان هذا الإنسان من أول ساكني الصحراء. وفي شمال ودان،

---

(1) Clark, J.D. 1981a "Prehistory in southern Africa" in Ki-Zerbo, J. ed, *UNSECO General History of Africa Volume I: Methodology and African Prehistory*, California: University of California Press, 1981, pp. 487-529.

(2) Mercer, p. 52.

(3) Ian Shaw and Robert Jameson, eds, *A Dictionary of Archeology*. Blackwell: Blackwell Publishing Compay, 1992, p. 15.

(4) Charles Darwin and Sir Francis Darwin, *Charles Darwin's Works: The Descent of Man and Selection in Relation to Sex*, New York: D. Appleton and Company, 1896, p. 137.

(5) 'Mercer, p. 52

في واد أكَرداي، يبدو أنه كثّفَ أنشطته وحضوره حيث بدأ أولىٰ المعالجات الحِرفية للصخور، وتوزّعت فئاته وعشائره في أزراكَ في جنوب ازويرات وفي منطقة لَبْيَظْ شمال آدرار وفي حامدون جنوبه وفي كَدامة شمال ولاتة[١]. أدخل الأشوليون للمجال أدوات جديدة وعديدة، هي المكاشط والشفرات الحجرية[٢]، ثم اختفوا.

❁ ❁ ❁

يبدو من الآثار التي وُجدت في شمال جنوب موريتانيا أن أقوامًا من الإنسان العاتري قد عاشوا في المجال منذ ٨٢٠٠٠ عام، رغم أن الباحثين لم يهتموا بحضورهم في موريتانيا. وبشكل عام، فإن معلوماتنا عن العاتريين قليلة. كل ما نعرفه هو أنهم فصيلة بشرية عاشت علىٰ امتداد ما هو معروف حاليًا بالصحراء، «من مصر إلىٰ المحيط الأطلسي وفيما تحت الأطلس إلىٰ جنوب موريتانيا»[٣]. وينسبهم الباحثون دومًا إلىٰ بئر العاتر بمنطقة تبسّة الجزائرية الحالية، التي ربما كانت نواة نشاطهم؛ ولكنهم ابتداءً من ٣٥٠٠٠ عام ق.م سيبدأون في الانتشار الكثيف في شمال موريتانيا، وتحديدًا في نواذيبو الحالية وأزراكُ شمال المجابة الكبرىٰ[٤]. وقد عاشوا في العصر الحجري الوسيط (العصر الباليوليتيكي)، ويبدو أنهم أسّسوا امتدادًا غير منقطع في عرض الصحراء الكبرىٰ الحالية من موريتانيا إلىٰ مصر، وقد تميّزوا عن أسلافهم بقدرتهم النحتية الملحوظة، بحيث إن معظم الدراسات تعتبرهم سلالة أولية من الإنسان العاقل. كانوا ينحتون الرماح الحجرية التي لا عِصيَ لها، والتي كانوا يدقّقون رؤوسها بشكل نيِّقٍ ومتقن ليُحَصِّلوا منها رؤوسًا حادة، كما كان شائعًا لدىٰ أقوام الصيادين في تلك الفترة. وعلىٰ العموم، فإنهم قد برعوا في تطوير الصناعة الحجرية، كما ترجِّح المصادر أنهم بدأوا في

---

(1) Vernet, *La Mauritanie*, p.10.

(٢) نفسه.

(3) Marqe De Villiers and Sheila Hirtle, *Sahara: an extraraordinary History of the World's Largest Desert*, New York: Walker and Company, 2002, p. 161.

(4) Vernet, *La Mauritanie*, p. 11.

إضافة المقابض اليدوية الحجرية للفؤوس. وتدلُّ الآثار الباقية علىٰ تنوعٍ في هذه الثقافة الأداتية.

كأسلافهم أيضًا وُجد العاتريون في منطقة آدرار، كما أن لهم آثارًا في منطقة عْوَينات لِخروف ووْتَيْكات انحَيْلَة في الشمال. وكانوا يمارسون الصيد في المنطقة الممتدّة من حوض النيل إلىٰ الغرب الإفريقي، ويُعتقد أنهم من اخترع القوس والسهم(١). ولا شكّ أن هذا يعكس مرحلة مهمة من التطور والتلاحم البشري؛ فقد كان القوس والسهم ثورة أخرىٰ في الحياة البشرية الأولىٰ تم اختراعه في الجنوب من إفريقيا منذ ٢٢٠٠٠ عام ونُقِلَ -ربما بفضل هذا الشعب- إلىٰ الشرق الأوسط، ومن هنالك عبر إلىٰ أوروبا، وتمّ تقديمه لبقية العالم في الألفية السادسة قبل الميلاد(٢). في غرب إفريقيا وشمالها استخدمته هذه الفصيلة في الصيد وتسهيل التقوُّت علىٰ لحوم الطرائد. لم يترك العاتريون غير قليل من الحجارة المدبّبة ثم -مثل سابقيهم- اندثروا. وإذا كانوا قد غادروا التاريخ مَنْسِيِّين، فإنهم خلّفوا القوس سلاحًا للصيد، وسيبقىٰ رفيق مجتمعات الصيد البرِّي في القرون الطويلة اللاحقة. وستظّلُ المجتمعات المعتالة علىٰ صيد الطرائد مزدهرة في المجال حتىٰ القرن العشرين بعد الميلاد، كما كان حال مجموعات أنْمادِي وصيادي الغزلان والنعام من معظم القبائل. وسنشاهد في القرن التاسع عشر الشاعر اليعقوبي، امحمد بن الطلبة، يواصل العادات العاترية ويبري النبال ليصيد بها الغزلان(٣).

❁ ❁ ❁

كانت الشعوب اللاحقة للعاتريين، الذين ترجِّح بعض المصادر أنهم كانوا شعبًا أسود(٤) عاش علىٰ الزراعة والصيد وصيد الأسماك كما تدلُّ علىٰ ذلك الآثار التي

---

(1) Mercer, p. 53.

(2) Lucinda Backwella et al, "Middle Stone Age Bone Tools from the Howiesons Poort layers, Sibudu Cave, South Africa," *Science Direct*, June, 2008, pp.1566-1580.

(٣) أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام علىٰ تلك البلاد تحديدًا وتخطيطًا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، مصر: المطبعة الحالية، ط١، ١٩١١، ص ٩١.

(4) Geneviève Désiré-Vuillemin, *Contribution à l'histoire de la Mauritanie 1900-1934, Dakar: Edition Calirafrique*, 1962, p. 50.

تركوها، وكانت أرضهم خصبة كما تدلُّ علىٰ ذلك رسوماتهم الكهفية المتوزِّعة في أنحاء البلاد. وقد عاشوا في أرضٍ كانت مسرحًا لازدهار بيئي، وكان هطول الأمطار فيها يضمن تأمين الحرث والمسارح الخصبة، ما أمّن حياة بريّة خصبة احتكّ فيها أحفادهم وتآلفوا مع حيوانات الغابات والأدغال التي رسموها علىٰ الكهوف والصخور. وتبدو صور الزرافات والفيلة والخيل وأفراس النهر واضحة في هذه الرسوم[1]، وإن كان من شبه المؤكد أن الخيول التي تراءت لخلفاء العاتريين لم تكن خيولًا أهلية؛ إذ لن تُستأنَسَ الخيل إلاّ لاحقًا (في فترة ٤٠٠٠ ق.م).

❁ ❁ ❁

تختفي الآثار البشرية الصحراوية لفترة حتىٰ عودة الفترة الخصبة التي أشرنا إليها في البداية؛ تقريبًا الفترة ٨٠٠٠ ق. م. ويمكن الإجمال أنّه قبل هذه الفترة المعلمية بسبب ظهور الإنسان المعاصر، نشأت تطورات ثقافية وتقنية مهمة وفارِقة من ظهور نحت الصخور والأخشاب إلىٰ استئناس النار وظهور الثقافة والمجتمع متمّثلة في ظهور اللغات الأولية (منذ ٣٠٠٠٠ عام تقريبًا)، ثم ظهور الإنسان العاقل في إفريقيا (منذ حوالي ١٥٠٠٠٠ عام) قبل أن يتوجّه منها إلىٰ أستراليا ثم أوروبا فالأمريكيتين. ولا شكّ أن هنالك علاقة بين هذه الثورات في الترحال والتحسن المناخي الذي تمثلَ في التحول من البرودة القارسة إلىٰ الرطوبة النسبية في الفترة ما قبل ١٣٠٠٠ عام، وهو ما سمح للشعوب بالسكن في القرىٰ والعمل في الرعي والزراعة.

في هذه الفترة المسماة أحيانًا بالثورة النيوليثية، قامت في الشرق الأوسط تطوّرات كبيرة في الحياة العامة والوعي الإنساني؛ حيث نهضت أولىٰ الحضارات، وبعد قرون بدأت أو وصلت إلىٰ المنطقة الصحراوية معالم ازدهار شبيه. في هذه الفترة اختفت أو انصهرت جميع الأنواع البشرية التي كانت موجودة في السابق والتي تعايشَتْ - متمايزةً - لفترة من الزمن مع الإنسان العاقل، بل وتناسلت معه كما أثبتت المعطيات الحديثة. وخلا الجو لإنساننا الحالي، وبدأ في منطقة الهلال الخصيب في الشرق الأوسط بتشييد معالم ثقافية

(١) نفسه.

مستديمة. كانت الثورة النيوليثية تتويجًا لعصر مختلف لا يعتمد حصرًا علىٰ الصيد وجمع الثمار، وإنّما علىٰ الزراعة كذلك. في الشرق الأوسط، بدءًا من ١٠٠٠٠ عام قبل الميلاد، بدأت أولىٰ عمليات استئناس الحيوان والنبات؛ وسيسمح هذا التطور بتحويل المجتمعات من مجتمعاتٍ لاقطة ومتنقِّلة إلىٰ مجتمعاتٍ مستقرّة وسينتج عنه ظهور أولىٰ القرىٰ والمدن.

في هذه الفترة يتداخل ما قبل التاريخ ببداية التاريخ الذي يُؤَرَخُ له عادة ببدء بناء المدن في سومر في العراق (٣٥٠٠ ق.م). يعتقد بعض الباحثين، مدفوعًا أحيانًا بمركزية مناخية، أن الثقافة النيوليثية بدأت تظهر في إفريقيا بشكل مستقلٍّ عن الشرق الأوسط، مهد الحضارة؛ وذلك للأسباب الموضوعية نفسها التي أنتجت حضارات الهلال الخصيب، وهي الاعتدال الحراري الذي أتاح إمكانية الإنتاج الزراعي وتشييد القرىٰ والمدن[١]. ورغم أن الآثار تدلُّ علىٰ هجرة نيولوثية من النيل السوداني شرقًا باتجاه المنطقة الإفريقية الغربية، إلا أنه يمكن التمييز بين الثقافة النيوليثية في الشرق عنها في الغرب الإفريقي.

وُجدت حضارة نيوليثية غنية في الأعالي الأثيوبية وفي الساحل الإفريقي وفي غرب إفريقيا. وبالنسبة إلىٰ المنطقة الموريتانية، فإن الأمر تعلّق أيضًا بهجرة قادمة من الشرق وربما تكون قد غيّرت الحياة العامة، وهو أمر سيحدث مرارًا في التاريخ الموريتاني. ولكن هذه الهجرة طُبعت بالطابع المحلي الذي غطّىٰ علىٰ أصلها وجعلها بنتَ المنطقة ووليدةَ تفاعلاتها المحلية. فبغض النظر عن حقيقة الهجرة من عدمها، فإن مجموعات بشرية توطّنت في المنطقة واستأنست فيها؛ وإليها يمكن نسبة أصل الآثار النيوليثية في المنطقة إلىٰ ٨٠٠٠ ق.م. في الجزائر التي تسمّىٰ تلك الآثار فيها بالآثار الوهرانية[٢]، وتظهر آثار شبيهة في الفترة نفسها في مالي وجنوب المغرب. وهو ما يعني أن شعوب المنطقة ولّدت ديناميكياتها الذاتية. وهذا صحيح أيضًا بالنسبة إلىٰ موريتانيا التي يعود أقدم أثر نيوليثي عثر

---

(١) انظر مثلًا:

Jared Diamond, *Guns, Germs, and Steel,* New York: Norton Press, 1999, pp. 157-176.

(2) Mercer, p. 56.

عليه فيها إلىٰ ٦٣٩٠ ق.م في الطينطان، جنوب شرق البلاد. ويبدو أن هذه الآثار استعمرت الأرض من شمال البلاد إلىٰ منطقة الساحل الغربي قرب نواكشوط في الألفية السابعة قبل الميلاد[١]. وربما تعضّدت هذه الثقافة بهجرات شمالية في وقتٍ لاحق. ففي الفترة ٥٠٠٠ ق.م، يبدو أن آثارًا شمالية قد اقتربت جنوبًا باتجاه موريتانيا، حيث تبدو واضحة في جبال هقار في شرق جنوب الجزائر. ومهما يكن، فإن الثقافة النيولوثية في موريتانيا والصحراء العربية في هذه الفترة طُبعت بطابعٍ صحراوي خاص[٢].

لم تأتِ الثقافة النيوليثية المهاجرة إلىٰ مجال موريتانيا من مصدر واحد، بل دخل المجال منها نسختان: الأولىٰ قوقازية، والثانية شمالية حسب البعض[٣] وسودانية حسب البعض الآخر[٤]. وقد تركت هاتان الثقافتان آثارهما في المثلث الموريتاني في الشمال وفي جنوبه. رغم إجماع الباحثين علىٰ انتماء نمط الحياة الموريتانية في هذه المرحلة إلىٰ المرحلة النيوليثية، إلا أن الآثار لا تثبت تغيرًا نمطيًا باتجاه الزراعة علىٰ حساب الصيد وجمع الثمار. في المقابل تدلُّ الآثار علىٰ صناعات «ثقافية»: مواقد وآليات من الخزف، وقواقع من بيض النعام (الذي سيحتفظ بقيمته الثقافية في موريتانيا حتىٰ القرن العشرين)، هذا بالإضافة إلىٰ آلاتٍ منحوتة من الحجارة والصخور[٥]. كما تُظهر الآثار ازدهارًا للصيد البري والبحري، حيث في الشمال، إلىٰ جهة الساقية الحمراء، ازدهر صيد الغزلان والظباء والنعام والخنازير البرية، وتطوّرت آليات الطبخ عند الأهالي[٦]؛ وهو أمرٌ سهّلته التطوّرات المعتبرة في التسلُّح، التي نلاحظها في كميات الأسهم والرؤوس المدببة، وهكذا زادَت رسوم الطرائد المصطادة في جلّ المنطقة الجبلية

(1) Vernet, *La Mauritanie*, p. 22.

(2) Mercer, p. 56.

(3) Vernet, *La Mauritanie*, p. 24.

(4) Mercer, p. 56.

(٥) نفسه.

(6) Vernet, *La Mauritanie*, p. 26.

الموريتانية[١]. وساعد تعدّد الأنهر والبحيرات علىٰ انتشار الصيد المائي وازدهاره خصوصًا في مناطقَ في اظهر تيشيت وآدرار الزراكَ. وربما لم يكن الصيد المائي سهلًا في هذه الفترة؛ لأن الأمواج البحرية كانت مرتفعة جدًا (٣ أمتار)، فيما كانت منطقة نهر السنغال عبارة عن خليج كبير، غير أن هؤلاء السكان قد اعتمدوا علىٰ صيد الأسماك وجمع القواقع[٢].

❁ ❁ ❁

عاشت في العصر النيوليثي فئات شعبية عدّة معتمدة علىٰ أنماط عيش متباينة، ومزدهرة أحيانًا. ولكن الصيادين والمنمين، ظاعنين ومنتجعين ورحلًا، كانوا أبرز مجتمعات هذا العهد وإن كانت هنالك آثار محتملة لمزارعين[٣]. في هذه الفترة، ازدهر نوعان من الصيادين المائيين: أولئك الذين كانوا يصيدون في البحيرات وتوجد آثارهم التي تعود إلىٰ الألفية السابعة قبل الميلاد في باطن تيشيت وسبخة شمشان وأم آغوابة وازراكَ، وأولئك الذين كانوا يصيدون في المحيط والبحار علىٰ الساحل وتظهر آثارهم في سواحل المغرب وغينيا ولكن آثارهم في موريتانيا لن تشاهد قبل ٦٣٩٠ ق. م في الطينطان و٥٩٦٠ ق. م في نواكشوط[٤]. وفي هذه الفترة أيضًا، ظهرت تربية القطعان ونهض استئناسها بشكل واسع. من الشمال إلىٰ الجنوب خلّفت القطعان آثارها وآثار استخدامها في جرِّ العربات في مناطق الغلاوية وتغداوست. بل يبدو أن الأبقار الأهلية كانت كثيرة جدًا في حومة تيشيت ونواكشوط. وربما بدأت عدوة نواكشوط تصبح حاضرة ومركزًا أساسيًا للتجمع في أوْجِ هذا العصر؛ إذ يبدو أن كلّ هذه المجموعات من الصيادين البحريين والبربين والمنمين تعايشت في مناطق متعددة، خصوصًا في نواحي موقع

(1) De Valicourt, p. 9.

(2) Vernet, *La Mauritanie*, p. 26.

(3) Robert Vernet, *Un Habitat de l'age de cuivre (2500 B. P.) de la region de Nouakchott (Mauritanie occidentale): Imbish est. Sahara preistoia e stoia del sahara*. Paris: Milani Pyramids, 1988, pp. 83-90.

(4) Vernet, *La Mauritanie*, pp. 26-29.

نواكشوط في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد[١]. في آلاف السنين القادمة سينطمر مكان نواكشوط ولكنه سيَنبعِثُ لاحقًا وينمو إلىٰ أن يصبح حاضرة البلاد بعد حوالي ٨٠٠٠ عام.

في الألفيات اللاحقة نمت وتعايشت مجموعات شعبية وإنتاجية عدة. ظهرت أولًا **المجموعة الطينطانية**، وهي المجموعة النيوليثية الأقدم، التي ظلّت قائمة حتىٰ عام ٢٤٥٠ ق.م. ثم ظهرت مجموعة رعوية جديدة توطّنت في الشمال الشرقي ثم هاجرت لاحقًا إلىٰ مجال نواكشوط، وأصبحت تعتمد فيه علىٰ تنمية القطعان. وكانت هذه المجموعات مترحِّلة نشطة، فتعاقبت في الألفية الرابعة والثالثة قبل الميلاد، وكان بعضها ينتج الفخار، وبشكل حصري في نواكشوط. ولم تكن نواكشوط مجرّد مقصد، بل كانت مكان تلاحم وتصاهر تداخلت فيه حيوات هذه الشرائح عندما تعايشت مجموعات من المنمين والصّيّادين البحريين عرفت بـ**مجموعة بوحديدة** التي كانت أيضًا تستورد النحاس من أكَجوجت في الألفية الثالثة. أما المجموعة الرابعة، التي كانت سمّاكية ورعوية، فقد عاشت في جنوب نهر السنغال منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد[٢]. وتكاد هذه تبدو صورة مألوفة: نواكشوط تصبح مركز استقطاب للمجموعات المهاجرة التي تجد فيها فرص أعمال مختلفة وتنصهر فيها مع مجموعات أخرىٰ في أنماط حياة جديدة. وتمامًا -كما في اليوم- كان سكان نواكشوط القدماء من المنمين والصيادين واللاقطين، الذين عاشوا في المنطقة الواقعة بين آمكرز وسبخة اندغامشة (مجموعة بوحديدة)، كانوا هم أكثر من استخدم الصناعات والأدوات كما تدلّ علىٰ ذلك البقايا الكثيرة من النحاس والخزف والفخار[٣].

تدلّ حياة مجموعة نواكشوط علىٰ أن الحياة النيوليثية الصحراوية لم تكن مجرد حياة صيدية أو حِرفية، بل اعتمدت أيضًا علىٰ الرعي وتنمية الماشية. وقد امتدّ

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٤٤.

(3) Eleanor Hoffmann, *Realm of the Evening Star: A History of Morocco and the Lands of the Moors*, New York: ClintonChilton Books, 1965, p. 59.

مجال الرعي إلىٰ المناطق البعيدة حتىٰ انشيري. وربما لم تزدهر الحياة الرعوية إلا بعد تراجع المحيط، فبدأ السكان في استئناس وتنمية الماشية الصغيرة بشكل واسع، وبدأ تأهيل الأبقار -والرعي عمومًا- يتعايش مع الصيد[١]. ونعرف أن هذه الفترة شهدت ظهور نوعين من القطعان في موريتانيا: الضأن البربري والظباء المعزية المتميزة بكثافة الزغب، التي يعتقد أنها رُوِّضت في وادي النيل قبل ذلك بقرون ووصلت لاحقًا إلىٰ الصحراء وظهرت علىٰ مدونات العصر: الرسوم الجدرانية[٢]. أما النوع الثاني فكان الأبقار التي ربما كانت غالبية اعتماد سكان الصحراء في هذه الفترة[٣].

إذن من الواضح أن النيوليثية الصحراوية طُبعت بطابع بدوي تمثل في حياة المنمين والرعاة الكثر، ولكن الملامح النيوليثية المشرقية أو الإفريقية العامة بقيت حاضرة فيها. ففي هذه الفترة النشطة تمّ استقدام ابتكارٍ مهم للحياة الصحراوية: الخزف، وذلك بحلول الألفية الرابعة قبل الميلاد. ولم يكن الخزف يقلّ ثورية عن اختراع النار. كان قد تم اختراعه منذ وقت طويل قبل إدخاله للمجال الموريتاني، فتعود أقدم آثاره المعروفة إلىٰ حوالي ٧٥٠٠ ق. م، في الجنوب البعيد جدًا آنذاك، في آيير، النيجر. إلاّ أنه من المؤكد الآن أنه لقي إقبالًا وتداولًا كبيرًا في فترة قدومه إلىٰ مجال موريتانيا، وبدأ يظهر في نواحي نواكشوط وفي امتداد منطقة انْبَشْ الشرقي إلىٰ انواذيبو وإلىٰ الطينطان. وكان لاستقدامه تداعيات «ثورية»، وظهر أثره في الحضارة وفي الصحة الإنسانية عندما تمّ استخدامه في حفظ الطعام، وبالتالي المساعدة في ترسيخ نظام الظعن والانتجاع عند النيوليثيين الموريتانيين[٤].

---

(١) نفسه، ص ٩.

(2) Raymond Mauny, "Trans-Saharan Contact and the Iron Age in West Africa". J. D. Fage, ed, *The Cambridge history of Africa: From 500 BC to AD 1050. Cambridge: Cambridge University Press, 1979, p. 317.*

(3) Hans-Georg Bandi, *The Art of the Stone Age: Forty Thousand Years of Rock Art*, New York: Crown Publishers, 1961, p. 138.

(4) Vernet, *La Mauritanie*, p. 24; Venet, *Un Habitat*, pp. 83-90.

في هذه الفترة النيوليثية شهدت المنطقة، وخصوصًا في منطقة أهقار الجزائرية، أقدم فنٍّ إفريقي أسود في التاريخ. وهو إنجاز فني يعتبره مؤرخو القدامة طفرةً في رسم الأوجه البشرية بدقة لن يوجد نظيرها إلا مع ظهور الإغريق[١]. فمن الواضح أنه في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد كانت ثمّة أعراق في المنطقة الصحراوية، وربما كان اختلاف مجموعتَي اطويلة وبوحديدة المزدهرتَيْن في العصر النيوليثي وما بعد العصر النيوليثي، اختلافًا عرقيًا إضافة إلىٰ أنه اختلاف وظيفي وثقافي[٢]. وربما كانت هذه هي الفترة التي توطّدَ فيها تواجد أسلاف من البربر وأسلاف للزنوج الأفارقة[٣]. وقد اعتقد بعض الدارسين أن الأخيرين تركوا آثارًا صخرية أكثر من نظرائهم في هذه الفترة، جازمًا أن النمط الثقافي للأولين لم يكن تدوينيًا وإنما كان أثريًا يتعلّق بإحاطة قبورهم بالصخور[٤]، ولكننا نعرف أن هذا لم يكن دومًا دقيقًا في بقية الصحراء، وخصوصًا في آدرار، منطقة التمركز الأهم للصحراويين الأوائل؛ حيث لاحظ الكولونيل مودا في وقتٍ مُبكِّر كيف أن آثار البربر كانت الأبرز في العصر النيوليثي، وإن جزم بأنهم كانوا الأقلية. وستظهر -وإن في وقتٍ لاحقٍ- كتابات البربر الصخرية من خلال آثار تيفيناغ المسجلة منذ ما قبل الميلاد علىٰ جدران المنطقة وجبالها في الشمال الموريتاني، وبكثرة في المجال المغاربي عمومًا. باختصارٍ كان هذا عصر ثقافتَيْن، وكان الفنّ هو هوية المجتمعات.

لم يكن العصر فقط عصر ظهور الفن، وإنما كان كذلك عصر ظهور الدِّين. ومن المهم التوقف عند القبور النيوليثية باعتبارها تحيل إلىٰ أولىٰ الأديان الصحراوية. ولا نعرف عن طبيعة هذه الأديان سوىٰ ما وصلنا منها، وهو تقديسها للأموات. وهي ممارسات ازدهرَت خصوصًا في غرب الصحراء ووسطها التي كان سكانها في هذا العهد يجتهدون في ترميم القبور بالرمال أو بالصخور

(1) Hoffmann, p. 9.

(2) Vernet, *Un Habitat*, pp. 83-90.

(3) Col Modat, "Les populations primitives de l'Adrar mauritanien," *Bulletin du Comité des Etudes Historiques et Scientifiques de l'AOF*, 1919, 374-375.

(4) Hoffmann, pp. 9-10.

والمحار إن توفّر. ويتضح أن نوعًا من التقاليد التقديسية كان معتبرًا في الدفن، وربما الجنائز؛ إذ كانوا كثيرًا ما يدفنون مع الموتىٰ الحلي وقلائد المحار وبيض النعام وبعض الجواهر والمرصعات وأحيانًا بعض الأسلحة والأدوات كالفؤوس. ويبدو أن العصور اللاحقة شهدت إضافة القطع النحاسية في هذه الطقوس. أما في غرب البلاد، وخصوصًا في أَمَطْلِيشْ، فقد كانوا يضعون كرة فولاذية في أفواه بعض الموتىٰ ويضعون أقداحًا من الخزف المليء بالمحار عند رؤوس بعض الموتىٰ الآخرين[١]. وربما تعلّقَ الأمر هنا بتعدُّد ديني أو مذهبي.

❁ ❁ ❁

حسب أبحاث وايت وماتينغلي، فإن الألفية الثالثة شهدت مرحلة جفاف واسعة أسفرت عن نضوب الأنهار وهجرة الحيوانات المدارية، وبدأت الصحراء في الاتساع شيئًا فشيئًا. وهو ما لاحظه قبلهما روبير فيرنيه من منظوره الحفري المحض؛ فمع الألفية الثانية قبل الميلاد بدأت الصحراء في النضوب وخلت إلاّ من مربِّي الإبل والعابرين بالقوافل التجارية وسكان الواحات، أما البقية من المزارعين والصيادين فقد اختفوا شيئًا فشيئًا[٢]. وكان لهذا -كما سيكون للجفاف دومًا في تاريخ موريتانيا- آثار اجتماعية عميقة. فمع بدايات منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد بدأت الساكنة السوداء في الانتجاع بعيدًا عن الجفاف، وذلك اتباعًا للمناطق المعتدلة والخصبة في الجنوب.

يعتقد باحثون ورُواةٌ عشائريون أن أسلاف زنوج الجنوب انحدروا من التراجع التاريخي في تلك الفترة[٣]. ويُعتقد أنه في فترة النزوح وتقلّص المساحة الخضراء بدأت منطقة نواكشوط في استقطاب السكان السود المنزاحين لجوِّها المعتدل. وكان جزءٌ كبير من النزوح جنوب نواكشوط قد تمّ من منطقة الصحراء الغربية[٤].

---

(1) Vernet, La Mauritanie, p. 31.

(٢) نفسه.

(3) Lucas, pp. 151-194.

(4) Robert O. Collins and James McDonald Burns, *A History of Sub-Saharan Africa*. Cambridge: Cambridge University Press, 2007, p. 58.

وربما لم يتقهقر الشعب الأسود إلىٰ الجنوب من دون ثمن اجتماعي. فمع اشتداد وقع الجفاف[١] بدأ بعضهم -وربما كانوا فصيلًا عرقيًا مستقلًا في هذه الفترة- في الهبوط من منطقة الصحراء الغربية الحالية باتجاه آدرار، وذلك قبل أن يتدفّقوا بفعل عوامل أخرىٰ إلىٰ الجنوب باتجاه السنغال والنيجر ويمتزجوا مع شعوب الجنوب[٢].

وتلازمًا مع هذا دخل شعب جديد علىٰ الخط، شعب ناطق بلغة آسيوية-إفريقية، وقد اعتقد الكثيرون أنّه قدِم مهاجرًا من الشرق الأوسط، مع أن أكثر الأدلة تشير إلىٰ أن له أصولًا قديمة في أعالي إفريقيا وشمالها. نزل هذا الشعب أوّل ما نزل في الشمال الأعلىٰ في منطقة الريف الحالية في المغرب، في الألفية الثالثة قبل الميلاد، عندما بدأوا في الاحتكاك بشعوب الصحراء رغم أنهم بقوا وحدات متماسكة لفترة طويلة[٣]، وذلك قبل الهبوط إلىٰ المجال الموريتاني لاحقًا في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد. في البداية سكن هؤلاء البربر في قرىٰ عائلية، حيث كانت ما تزال بقية من الخصوبة[٤] التي كانت -كما يمكن استنتاج ذلك- مقصدَ حيواناتهم للرعي. ولكنهم سرعان ما تحوّلوا إلىٰ بدوٍ رُحّل، بعد جدب المجال، ونزل الكثير منهم إلىٰ الصحراء في الفترة التاريخية الكبيرة نفسها التي بقي فيها السود في وسط البلاد وجنوبها. هنالك سيكتبون قصة شعوب الصحراء.

---

(١) نفسه.

(2) Kevin Shillington, ed. *Encyclopedia of African History*, New York: Tylor & Francis Group, 2005, vol 1, p. 533.

(3) Hdain Ilahiane, *Historical Dictionary of the Berber (Imazighen)*. Oxford: The Scarecrow Press, 2006, p. xxxi;

(٤) نفسه.

- ٢ -

ظهور الشعوب (حوالي ٣٠٠-٣٠٠٠ ق.م)

«الوجود يسبق الماهية»

سارتر

مع بدء انحسار المساحة الخضراء الكبيرة وظهور الصحراء بدأت بعض التجمعات السكنية في التراجع من شمال البلاد إلىٰ التمركز في جنوب وسطها في نواحي تيشيت الحالية فجنوبها. وبعكس ما يوحي به مفهوم التراجع والانحدار، فإن الشعب المهاجر عاش إحدىٰ أكبر فترات ازدهاره، التي ربما كانت من بين أكثر الفترات ازدهارًا في تاريخ التقرِّي في المنطقة. ففي الجروف والوديان المحيطة بمنطقة آوكار في الفترة ما بين ١٧٠٠ إلىٰ ٤٠٠ قبل الميلاد[١] تجمّع الشعب الأسود بوفرة في منطقة اظهر تيشيت وولاتة، حيث بُنيت أكثر من ٤٠٠ قرية[٢]، وهو ازدهارٌ لم تشهده المنطقة حتىٰ اليوم.

---

(١) يثير موضوع تأريخ تيشيت القديمة عدة خلافات بين علماء الحفريات، فبينما يعتقد منسون في رسالته للدكتوراه في جامعة إلينوىٰ أن عموم الحضارة تراوح بين ١١٠٠ إلىٰ ٤٠٠، فإن عالم الآثار الموريتاني محمد ولد ختار يقدم توثيقًا جديدًا يعتمد الفترة ١٨٠٠ إلىٰ ٢٠٠ ق.م.

Marianne Cornevin, *Secrets du continent noir révélés par l'archéologie*, Paris: Maisonneuve et Larose, 1998, p. 125.

وأيضًا:

Ian Shaw and Robert Jameson, ed. A Dictionary of Archeology. Blackwell: Blackwell Publishing Company, 1992, p. 199;

(2) Vernet, *La Mauritanie*, p. 44.

كان الشعب الذي استوطن أولًا في منطقة تيشيت وجنوبها في ولاتة مجموعة من الصيادين والسماكين، ولكنهم سرعان ما تحوّلوا إلىٰ رعاة وفلاحين[١]. أما الباحث الحفري روبير فيرنيه فيذهب إلىٰ أنهم كانوا منمِّين طردهم التصحّر فتحوّلوا إلىٰ مجتمعاتٍ مستقرة رغم أنهم بقوا يمارسون الصيد وجمع الثمار والفواكه والزراعة في تيشيت ونواحيها بدءًا من ٣٥٠٠ ق.م[٢]. ولا ريب أنهم وجدوا في موقع تيشيت المكانَ الأنسب للتحضّر بسبب اعتدال حرارته ووفرة مياهه؛ إذ كان حوضُ المنطقة مرتعًا لبحيرات وأنهار جارية، وأصبحت سهوله مكانًا مريحًا لهؤلاء المنمين الذين أقاموا فيه نمط ظعن يعتمد علىٰ الملكية العامة والعمل الجماعي. وتمكّنوا فيه من تأسيس قرىٰ متكوِّنَة من بيوتٍ تسكنها العوائل وتتألّف كلٌّ منها من عدّة غرف ذات جوانب خاصة بتخزين الأغذية وأخرىٰ خاصة بتدجين القطعان[٣]. أثارت هذه الحضارة، التي تمّ اكتشافها حديثًا، دهشة العلماء والمؤرِّخين بحيث إن الحفري الكبير رايمون موني اعتبر أنها تجمعٌ فريدٌ من نوعه في الصحراء، «وفريدٌ في العالم في العهد النيوليثي»[٤].

يمكن القول إن الحياة التيشيتية الولاتية القديمة قامت علىٰ الملكية المشاعية؛ ذلك أن القرية فيها كانت تتكوّن من ثلاثة عناصر دائمة: المساكن العائلية، ثم الحظائر المغلقة الخاصة بالممتلكات العامة التابعة للقرية التي كانت توجد في أفنية البيوتات، فالمنزل الكبير المركزي في وسط القرية[٥] الذي ربما كان مجلس القرية ومنتداها ومجالها العام ومقرّ اجتماعاتها من أجل تنظيم حياتها. وقد تحلّقت هذه القرىٰ الأربعمائة في مساحات سكانية مستقلة ومتمايزة في وحدات سكنية، الواحدة منها تأوي عادة حوالي ٦٠٠ ساكن لأهله مخزنهم وأسطبلهم

(1) Ian Shaw and Robert Jameson, p. 199.

(2) Vernet, La Mauritanie, p. 44.

(٣) نفسه، ص ٤٦.

(4) Cornevin, *Secrets*, p. 124.

(٥) نفسه.

ومِربدهم (مكان اجتماع وتداول ماشيتِهم) الخاص[١]. ويبدو أنها كانت مأهولة دائمًا إلا مرّة واحدة في العام كان التيشيتيون يتنقلّون فيها بين مساحتين في أرضهم؛ فما إن ينتهي موسم حصاد الدخن حتّىٰ ينزاحوا إلىٰ مساحات أخرىٰ في القرىٰ للعمل في بقية أنواع الحياة الاقتصادية والرعوية[٢].

في ولاتة أيضًا ازدهرت حضارة يعتقد أنها امتداد لتيشيت، ويسميها المؤرخ الأركيولوجي باتريك منسون بـ«**تراث تيشيت**»، ففي الفترة ١١٠٠ ق. م بدأ هؤلاء الفلاحون والصيادون والمزارعون في التجمع في قرىٰ صغيرة متكوِّنة من منازل حجرية قصيرة تربطها شوارع منظَّمة جيدًا. وستتطوّر هذه القرىٰ كثيرًا في القرون اللاحقة، رغم انعدام الحدادة وفي ظل زمن صعبٍ كثرت فيه تحصينات المنازل ربما انعكاسًا لحالة احتقان وتوتّر أمني مزمن في بداية الألفية الأولىٰ قبل الميلاد. حدث هذا تلازمًا مع تحوّل واسع من الحياة الرعوية إلىٰ الزراعة[٣]. وهو تحوّل بدأ يقوم حثيثًا ابتداءً من هذه الألفية الأولىٰ قبل الميلاد وربما كانت الزراعة موجودة بشكل ضئيل في أعالي البلاد، ولكن عصرها الحقيقي سيبدأ في تيشيت وولاتة ابتداءً من ١٠٠٠ ق. م، عندما بدأ القرويون في المنطقتين زراعة الدخن والقمح بشكل وافر -وهو يحتاج إلىٰ ٢٧٥ ملِّمترًا من الأمطار سنويًا-، وهو تطوّرٌ تلازم في حينه مع بداية تشييد المساكن بالحجارة الجافة. وعلىٰ العموم، أصبحت الزراعة موضع إقبال كبير بحيث إن المساحة المزروعة تحوّلت بعد قرن من إدخالها للحياة التيشيتية-الولاتية من ٣% من المجال إلىٰ ٦١%، ما ساهم في نهضة سكانية كبيرة تزامنت مع تطوير أدوات الانتجاع كما استفادَ أهلُها من الخزف، إنجاز العهد النيوليثي[٤].

❁ ❁ ❁

(1) Venet, *La Mauritanie*, p. 47.

(2) Shaw and Jameson, p. 199.

(3) Patrick J. Munson, "Archaeology and the Prehistoric Origins of the Ghana Empire," *The Journal of African History*, 1980, Vol. 21, No. 4 pp. 457- 466.

(4) Keven McDonald, "Invisible Pastoralists: an inquiry into the Origins of Nomadic Pastoralism in the West African Sahel," in Chris Gosden and Jon Hather, eds, *The Prehistory of Food: Appetites for Change*, Routledge, 1999, pp. 326-342

كان العصر الزراعي قبل الفترة ٣٠٠٠ ق.م. ابتدائيًا معتمدًا علىٰ البذر الاعتباطي، ولكن الزراعة المنظّمة المعتمدة علىٰ الحبوب المُستأنسة ازدهرت بعد هذا بشكل مطرِّد. ففي القرون الثلاثة الممتدة ما بين ٢٧٠٠ ق.م و٢٤٠٠ ق.م في آكَجَيْنْجِير وصلت الزراعة التي يتعهّدها السكان ويستأنسونها إلىٰ ٨٢% من الأرض القابلة للزراعة والمسكونة[١]. وقد اكتشف باتريك مَنْسون أن القرىٰ الواقعة بين ولاتة وتيشيت وصلت في هذه الفترة إلىٰ ثلاثمائة قرية من عدد القرىٰ الخمس عشرة الأولىٰ، وأصبحت الزراعة -تُحفِّزها العوامل المناخية المعتدلة- نمطَ الإنتاج المسيطر؛ فقلّصت إلىٰ حدٍ كبير سيادة الصيد وصيد السمك الذي كان شائعًا قبل النزوح إلىٰ المكان[٢]. ومع ذلك فإن الحفريات تبقىٰ مُشكِّكة في أن غرض الهجرات الوافدة إلىٰ تيشيت -ولاتة كان الزراعة وحدَها. فقد تعوّد بعضُ التيشيتيين الارتحال والانتجاع سنويًا إلىٰ الجنوب، وربما كان مردُّ ذلك عوامل عرقية أو متعلّقة بالسن. كما كان لهم تفاعلٌ مع امتداد التجمعات التيشيتية المتوغلة حتىٰ كوبادي في مالي. هنالك كانت هذه الهجرات تتفاعل في القرىٰ التي آوت عدة أعراق مختلفة[٣].

تمّ الكشف عن الحضارة التيشيتية لأول مرة من خلال أعمال باتريك مَنسون في عام ١٩٦٨ ثمّ تبِعته أعمال أوغستين هول في عام ١٩٨٠، وقد ظلّت بعد ذلك موضع اهتمام من قبل الدارسين. وما نعرِفه أن ازدهار الحضارة التيشتية استمرّ لعدة قرون لاحقة، وأنّ النشاط الزراعي والتنموي (تنمية الماشية من الأبقار والخراف) تواكب معها قُدُمًا. ومع القرن التاسع قبل الميلاد يبدو أن الطابع العسكري من تحصينات المنازل قد بدأ في الاختفاء لصالح منازل مفتوحة وآمنة. وهو ما جعل مَنسون يخمِّنُ أن النظام السياسي تطوّر إلىٰ نظام زعامات قبلية مسيطرة[٤]. ويبدو أن قرون السلام هذه تجلّت في ازدهار ونموٍّ سريع؛ ذلك أن الفترة ٧٠٠ ق.م شهدت بلوغ القرىٰ إلىٰ ٢٠٠ قرية بعد أن كانت أقلّ بكثير في

(1) Vernet, La Mauritanie, p. 47.

(2) Shaw and Jameson, p.199.

(3) Keven McDonald. pp. 331-333

(4) Patrick J. Munson, "Archaeology and the Prehistoric Origins," 457-466

فترة التحصينات والقلاقل[١]. ومن هذه الثقافة بدأت تتفرّع ثقافات في مالي (كوبادي وندوندي وتوسوكل)[٢]؛ بل إن مَنْسون يعتقد أن حضارة تيشيت ولاتة هي الأصل التاريخي لدولة غانة التي ستظهر في النصف الثاني من الألفية الميلادية الأولىٰ[٣]. وبهذا المعنىٰ -ولو أنه صعب الإثبات- فإن ثقافة سهول تيشيت وولاتة تواصلت لمدة ولم تتراجع إلا مع الهجمات اللاحقة للبربر الأوائل، أو أشباه البربر القادمين من الشمال الذين بدأوا في النزول إلىٰ المجال الموريتاني منذ مطلع الألفية الأولىٰ لما قبل الميلاد، نازحين من المغرب الكبير الذي استوطنوه قبل ذلك بألف عام.

يعتقد الآن بعضُ المؤرخين أن بناة هذه الحضارة كانوا من السونينكي، غير أن هذا المعطىٰ لم يُثبَت[٤]، ويبدو أنّه يحملُ تشخيصًا متعاليًا علىٰ التاريخ (يُعطي للسونينكي هوية أبدية بدلًا من أن ينظر إلىٰ تكوّنهم التاريخي اللاحق). ومع ذلك، فمن الواضح أن سكان هذه الحضارة كانوا سودًا، وربما من أسلاف الماندي الذين تفرّع منهم السونينكي. ويبدو أن المواد الموجودة في منطقتهم كانت تشبه الأدوات المنزلية للسودان في منطقة غرب إفريقيا في القرون اللاحقة، وثمّة تشابهٌ متطابق بين الهندسة المعمارية بين تيشيت القديمة والهندسة المعمارية الحديثة عند شعوب الماندي، كما أن هنالك تشابهًا بين المواد الفخارية القديمة نفسها في تيشيت وتلك الحديثة للسونينكي في دياوارا في مالي. كما أن الحضور الأسود في تلك المنطقة ظلّ ملموسًا حتىٰ القرن السادس عشر، بل إن أسماء الأعلام والتضاريس الفلانية التكرورية -وهي ليست ماندية، وتعود لفترة ما بعد قروسطية في الأغلب- ما زالت حاضرة إلىٰ حدٍّ الآن في المنطقة التي أصبحت مأهولة بالسكان البيضان منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر علىٰ الأقل[٥].

---

(1) Cornevin, Secete, p. 126.

(2) Keven McDonald, p. 331.

(3) Patrick J. Munson," Archaeology and the Prehistoric Origins," 457-466

(4) Cornevin, Secrets, p.128.

(5) Blench, Roger & Matthew Spriggs, eds, *Archaeology and Language, I: Theoretical and Methodological Orientations*, London: Routledge, 1997, pp. 55-56.; Patrick J. Munson, Archaeology and the Prehistoric Origins, pp. 457-459.

تنقلنا المعطيات الحفرية والكتابية إلىٰ انفتاح كبير في حركة السكان في الألفيات والمئويات الأخيرة لما قبل الميلاد، وترينا هذه الآثار بزوغًا لأجناس الشعوب المتعدِّدة التي سكنت في مجال الصحراء. بعض الآثار التي اقتربت ثم توغلت في موريتانيا هي الآثار الأولىٰ لأوَل شعبَيْن موريتانين يستمرّان في الوجود إلىٰ الآن: الأهالي من السود ومن أوائل البربر و/أو البافور. فأما السكان السود فقد سكنوا في المحامل الآدرارية وكانوا حِرفيين؛ وأما غير السود فقد عُرِفوا بالبافور. ويبدو من التصوّرات الشعبية لهم، التي نقلها الكولونيل مودا في مطلع القرن العشرين، أنهم كانوا مُزارعين بيضًا مُنحدِرين من قبائل زناتة الأمازيغية (من البربر)؛ إذ نُسِبوا إلىٰ بافور بن شروال بن لوات، وكانوا حرّاثين ومزارعين زرعوا النخل في منطقة توجنين والمالحة الآدرارية، حيثُ عُرِفوا بتمرِهم في الأولىٰ وببلحِهم في الأخيرة. وقد خلص مودا إلىٰ أن الأهالي الآدراريين أطلقوا صفة البافور علىٰ كلّ السكان البيض فيما قبل الإسلام؛ ووصفوهم بـ «العجم» وبـ «الفطريين»[١].

تميل الروايات الشفهية - وإن كانت قيمتها التاريخية أقلَّ من الحفريات كما أن تغطيتها لآلاف السنين تبقىٰ مؤسطِرة - علىٰ أن أوائل السكان السود في هذه الفترة استقرّوا في وسط البلاد في وقت مبكر وعاشوا في ظلِّ ثقافة زراعية حِرفية تُنتج مختلف الصناعات الفخارية في آوكار. وربما عبدوا الشمس، كما يمكن استنتاج ذلك من توجيه القبور[٢]. وتُسبغُ هذه الروايات المؤسطِرة علىٰ هؤلاء هوية تعدّدية متمثِّلة في نُطقهم لغة الآزير[٣]، التي نعرف الآن أنّها تفرّعت من امتزاج بين لغة السونينكي ولغة البربر في القرون اللاحقة. وحسب الآثار، فقد انتشروا في المنطقة الممتدّة من لِعْصابة وأَوْجَفْت وآسْريز إلىٰ أزوكَي[٤].

في المقابل لا تبدو هوية البافور متفّقًا عليها. ربما كانوا أقوامًا بيضًا من البربر

---

(1) Modat, "les populations primitives de l'Adrar mauritanien," 378.

(٢) وهو أيضًا ما يؤكده أحد مؤرخي البربر، وهو مؤلف مفاخر البربر. مفاخر البربر لمؤلف مجهول. تحقيق عبد القادر بوباية. الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر. ٢٠٠٥، ص ١٩٦.

(3) Lucas, pp.164-165.

(٤) نفسه، ص ١٦١-١٦٢.

الأوائل، غير أن الروايات تختلف حول أصلهم وهويّتِهم. وقد أصبح نقاش هويّتهم موضع أقوال متضاربة من الباحثين، فبينما تعتبرهم بعض المصادر سكانًا سودًا[١]، فإن أغلب المصادر -بما فيها التصوّرات التي نقلها مودا- ترجِّح أن يكونوا من أصل ظواعني بربري[٢]. غير أن آثارًا أخرىٰ تذهب إلىٰ أنهم كانوا بيضًا ممتزجين بالساكنة السوداء في القرون اللاحقة، ما جعلهم أقرب إلىٰ السمرة التي ميّزتهم عن أفارقة الجنوب؛ إذْ يبدون -علىٰ الأقل في تناسلهم اللاحق- مختلفين كليًا من الناحية العرقية كما تدلّ علىٰ ذلك ملامح بعض المنسوبين إليهم كمجموعات تيزكَة[٣] وإمراكَن[٤] وحراطين أولاد بنيوك[٥]. كما أن ثمة إحالات مهمة إلىٰ كونهم هم أسلاف الحراطين في آدرار، الذين تم إلحاقهم فيما بعد بقبائل السماسيد وإديشيللي (آدرار)[٦]. وربما كان البافور ائتلافًا أرستقراطيًا من السادة البيض وعبيدهم السود. وفي القرن العشرين أشارت بعض الروايات الشفهية إلىٰ أن بقايا أولئك الأسياد بقيت ملحقة بقبيلة الطلابين (الترارزة)، وبعضًا من تاغنيت -حسب رواية لبونا مختار- من أولاد دامان[٧]، بينما يجزم بيير بونت

---

(1) Désiré-Vuillemin, p.50; Alfred Gerteiny, *Historical Dictionary of Mauritania*, Metuchen &London: The Scarecrow Press, 1981, p. 32.

(٢) انظر:

بيير بونت، إمارة آدرار الموريتانية: نبذة تاريخية، ترجمة بوبة ولد محمد نافع، نواكشوط: المركز الفرنسي للأركيولوجيا، ٢٠٠٢، ص ١٢-١٣. وأيضًا:

Antonio Pazzanita, *Historical Dictionary of Mauritania*. Metuchen &London: The Scarecrow Press, 2008, p. 264.

حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية، الرباط: منشورات دار الزمن، ٢٠٠٧، ص ٢٨.

(3) Modat, 382.

(4) Greitany, Historical Dictionary, pp. 61-62; Désiré-Vuillemin. Contribution, pp. 51-52

رغم هذا يجب التنبيه إلىٰ أنه لا يوجد أصل موحد لمجموعة إمراغن، بل هم عناصر ممتزجة حسب ما تثبت دراسات عبد الودود ولد الشيخ، وأغلبيتهم هم حراطون تابعون في الأصل لمجموعات أهل باركللة وأولاد بوسباع والترارزة.. إلخ.

(5) Lucas, Considération,159

(6) Vuillemin. Contribution, 51; Lucas, 159

(7) Lucas, p.161

-الدّارس المقتدِر- أنهم أقوامٌ من بربر ما قبل تأهيل الإبل[1].

وعلىٰ العموم، فإن الحديث عن النقاء العرقي يتّسم بالغموض وعدم الدقة لدىٰ التطرق للعهود الأولىٰ الغامضة والمتّسمة بالتسارع والاختلاط بين «الأعراق». ومن الأرجح أن وجود الأعراق نتجَ عن الهجرات البشرية القديمة واختلاطها، وهو ما أدّىٰ إلىٰ تفرعات كبيرة في الدنا (DNA) أو الخرائط الجينية البشرية التي، بغضِّ النظر عن أصلها المشترك في نخب واحدة، إلاّ أنّها تشعّبت في فترات الانتشار البشري المتعدِّدة. وفي منطقة غرب إفريقيا ظلّ تداخل الأعراق قائمًا حتىٰ الألفيات القليلة لما قبل الميلاد، من خلال امتزاج الأوجه بالتقاطيع الحادة مع الأوجه بالتقاطيع الفطحاء من مصر إلىٰ موريتانيا ومن موريتانيا إلىٰ إسبانيا. إلاّ أن من المرجح أن الغالبية العظمىٰ من السكان في جنوب المنطقة الصحراوية كانوا غالبًا سودًا أو زنوجًا[2]، فيما كان الغالبية من سكان شمالها من البربر البيض أو أشباهِهم.

ومهما يكن، فإن الروايات الشفهية تسردُ انطباعاتها اللاحقة وإعادة كتابتها

---

(١) بونت، إمارة آدرار الموريتانية، ص ١٢-١٣.

(2) Lewontin, R. C., *The Genetic Basis of Evolutionary Change*, New York: Columbia University Pres, 1974.

وفيما يخصُّ مصطلح الزنوج فإن هنا ترتيبًا يلزم. فالعادة الدّارِجة في موريتانيا وفي أدبيات المنطقة، الناطِقة بالعربية، تلجأ إلىٰ تسمية المكونات السوداء، الناطِقة باللغات الإفريقية غير العربية، بالزنوج. ويبدو هذا المفهوم مُستحدَثًا؛ إذ أُطلِقَ عليهم في التاريخ الجُغرافي والرّحالي «السودان»؛ أما في اللهجة الحسانية، وهي الدارجة العربية بمنطقة الصحراء، فتُطلِقُ عليهم مصطلح «**لِكوَرْ**»، الذي يبدو أنه من أصولٍ فصيحة، وهو يعني «**سُكان الأكوار**»، أي القرىٰ والأمصار العجمية. لا يمكن في منطقة الصحراء القيام بالتحويلات نفسها التي يُقام بها في التاريخ الثقافي الأمريكي مثلًا، وهي استبدال مصطلح «الأفارقة الأمريكيين» أو «الموريتانيين» في الحالة الموريتانية بـ «الزنوج»، لما في ذلك من أرخنة وموضعة (إذ الكلّ إفريقي بالنهاية، بعكس الترتيبة الأمريكية). وفيما يبدو مصطلح «الزنوج» متضمِّنًا شحنة قد تبدو سلبية في التاريخ المشرقي العربي والأمريكي، فإن التنزيلات الصحراوية له - والمستنِدة علىٰ تاريخ مفاهيمي فرنسي وإفريقي (مثلًا المضامين الافتخارية والقومية لمفهوم «الزناجة» عند ليوبولد سيدار سنغور) - لا تبدو مُستبقية لهذه الشحنة السلبية ذات المركزية المشرقية أو الأمريكية. وفي المقابل هو التصنيف الاعتيادي. لذا وجب تنبيه القارئ غير المستأنِس بهذه الترتيبات.

Hoffmann, p. 9.

أو تخيّلَها للتاريخ. ويبدو منها أن البيض القادمين من الشمال أزاحوا السود في وسط الصحراء، في آدرار وأزوكَي، وهو ما تبِعته هجرات من البربر البافور الذين دخلوا في ملحمة من الحرب والسلام مع السود. إلا أن من الواضح أن علاقات البيض والسود لم تكن فقط علاقة إزاحة واحتراب، وإنّما كانت علاقة تمازج وتعايش. وكانت نواة أو طليعة هؤلاء البافور، الذين ربما مثّلوا هذا التمازج، فرسانًا مقاتلين؛ وفي نمط حياتهم كانوا يعتمدون أساسًا علىٰ الاستسقاء من الآبار التي حفروها وعلىٰ الزراعة المروية في الواحات بدلًا من زراعة القمح والشعير التي كانت عند أسلافهم. ثم قاموا لاحقًا بتطوير الأعمال البنائية والموسيقية[١].

وعلىٰ العموم كان البافور في بدء أمرِهم شعبًا بدويًا من الصيادين والمعتمدين علىٰ جمع الثمار وسكن الواحات وزراعتها. في البداية توطّنوا في شمال البلاد من ناحية آدرار[٢]، حيث ساهم الاعتدال الحراري في خلق جوٍّ خصب معتدل أبقاهم طويلًا في الواحات. هنالك -كأيِّ شعب نيوليثي- استأنسوا الحيوانات البرية الصغيرة من المعز والضأن[٣]، كما تدلّ علىٰ ذلك آثار الرسوم الموجودة في منطقة ودان آدرار. ويبدو أن عملية استئناس الأبقار والجواميس المنحدرة من جواميس الأرخص قد بدأت في المنطقة باستخدام الماء والملح واستغرقت أوقاتًا طويلة[٤]. ولا شكّ أن هذا قد أعطىٰ فسحة انتجاعية لهؤلاء السكان الذين تحيل المعطيات إلىٰ تمدّدهم في الألفية الأولىٰ لما قبل الميلاد في كلّ الشمال الموريتاني من آدرار إلىٰ أقصىٰ الشمال الغربي، في الصحراء الغربية[٥]. وهنالك بدأوا في حراثة الدخن والقلقاس الهندي (البطاطا الحلوة)، التي بدأت حراثتها لأول مرة في العالم في إفريقيا حوالي ٨٠٠٠ ق.م. كما قام شعب البافور أيضًا

---

(1) Lucas, p.165; Modat.

(٢) بيير بونت، إمارة آدرار، ص ١٢-١٣.

(3) Pierre Bonte, *L'émirat de l'Adrar mauritanien: Harîm, compétition et protection dans une societé tribal saharanienne*, Paris: Karthala, 2008, p.167.

(4) Robert O. Collins and James McDonald Burns, *A history of Sub-Saharan Africa*, Cambridge: Cambridge University Press, 2007, p, 57.

(5) Tony Hodges, *Historical Dictionary of Western Sahara*. Metuchen &London: The Scarecrow Press, 1982, p. 2.

بحرث أنماط أولية من الأرز، ما يدلُّ علىٰ وجود أنهر وبحيرات في المنطقة في تلك الفترة[١].

يُعتقد الآن أن هذه الحراثة هي ما جعل البافور يبقوْن في أماكن قارّة بدلًا من التجول خلف الكلأ كما سيفعل الكثير من أخلافهم وكما كان يفعل أسلافهم. ولا تذكر الآثار الشفاهية التي عدّدها مودا غير زراعة البافور في الواحات، حيثُ عُرفت واحات النخل بـ«**نخل البافور**»[٢]. إلا أن من الواضح أن الفترة البافورية شهدت استقدام حراثة الدخن للمنطقة، كما رأينا. وكان الدخن مادة غذائية أساسية في الشرق في الصين وكوريا الحاليتيْن تم اكتشاف حراثتها في بدايات قرون العشرية الألفية الأولىٰ قبل الميلاد ثم نُقِلت إلىٰ الغرب في الألفيات القادمة[٣]. ولعلها كانت ذات آثارٍ باقية علىٰ الاستقرار في أقصىٰ الغرب الإفريقي بعد آلاف السنين.

عاش شعب البافور في بيوت ومنازل متقاربة فيما بينها ومزدحمة علىٰ هيئة مدن صغيرة، وبنوا مرتفعات محصّنة للدفاع شبيهة بتحصينات دفاعية وجدت في الفترة نفسها عند البربر في الأعالي في طنجة المغربية[٤]. ولعلّ المدن الصغيرة المعتمدة علىٰ الواحات في وسط الصحراء هي ما سيعرفه سكان الصحراء بـ«**لِكصور**» أو القصور، وستصبح نمط الحياة المدنية الصحراوية في آلاف السنين اللاحقة. وصحيح أن نمط الجفاف سيجعلها غير مكتملة التمدّن، إذ ستستفيد من تربية المواشي والظعن خلفها؛ ولكن المدن البافورية والولاتية والتيشيتية ستكون أساسها، وإن بطابعٍ بربري صنهاجي مختلف.

بعد آلاف السنين، وفي سبعينيات القرن العشرين، كان أحفاد هؤلاء السكان الأصليين من الإمراغن عبارة عن «مجموعة عرقية صغيرة تشكِّل قبيلة وطائفة من حوالي ١٥٠٠ شخص»، كما يصفهم مؤلف **المعجم التاريخي لموريتانيا**[٥]. إنهم

(1) Ettagale Blauer and Jason Lauré, *Mauritania*, China: Michael Blisson, 2009, p. 23.

(2) Modat, 381.

(3) Lawler, A., "Bridging East and West: Millet on the move". *Science*, 2009, pp. 942-943.

(4) Pierre Bonte, *L'émirat de l'Adrar*, p.167.

(5) Gerteiny, p. 60.

-بحسب غريتاني- ليسوا الآن سوىٰ «صيادي أسماك يَخضعون للقبائل الحسانية، وخصوصًا أولاد بوالسباع، ويعيشون في أكواخ كئيبة في المنطقة الممتدة من رأس تيميريس إلىٰ نواذيبو»، و«يعيشون منغلقين علىٰ أنفسهم وليس لهم إلاّ علاقات ضئيلة مع العالم الخارجي»[١]. ولا ريب أن هذه صورة تراجيدية، وإن كانت رائجة؛ إذ نجد شبيهها عند باحث في الأعراق زار مجتمع الإمراغن في السبعينيات وفي بداية الثمانينيات من القرن العشرين، هو أف. إكس. بَلتييه، الذي يقدِّمُ الإمراغن في صورة بقية من رجال كانوا واضمحّلوا: حضارة زائلة تستحق التسجيل، ثقافة تلفظ أنفاسها الأخيرة[٢]. غير أن المؤرِّخ الكبير بيير بونت يقدِّم صورة أقل قتامة عن مصير البافور: إن أحفادهم ليسوا هؤلاء الصيادين، الوشيكين علىٰ الاختفاء، بل هم -بحسبه- مجموعات تغلغلت في مجتمع البيضان وتمدّدت فيه. ويعطي كأمثلة عليهم مجموعات بقيت في قبيلة إيديشلي، الوافرة والقوية في آدرار، وهم أسلاف أهل الشيخ ولد بكار وإديارغن، الذين يقطنون في الواحات الجنوبية في اظهر آدرار ولِمْحَيْصِر في مرتفع إبي قرب منطقة اظْهَر[٣].

وإذا كان بيير بونت يرىٰ أن البافور هم بربر مما قبل عهد تأهيل الإبل، فإن عصر البربر الصحراويين كان عصرًا أكثر وضوحًا لنا بعد استئناس الإبل. ولكن وجودهم في المجال، وخصوصًا في شمال المغرب، يعود لما قبل هذا بآلاف السنين. عاش البربر أول ما عاشوا في غرب إفريقيا منذ الألفية السابعة، بغض النظر عن الخلاف بين المؤرِّخين حول أصلهم وهل قدموا من خارج شمال إفريقيا أم تطوّروا من الإنسان النياردانتال المحلي[٤]. وقد ساهموا في عصر النحاس في المنطقة وعاشوا ألف عام قبل ظهور آثارِهم في الصحراء في الشمال الأعلىٰ في المغرب عندما نزلوا منطقة الريف الحالية. وابتداءً من الألفية الأولىٰ قبل الميلاد بدأوا قي القدوم إلىٰ الجنوب، حيث وصلوا أو بزغوا في الشمال الموريتاني.

❁ ❁ ❁

(١) نفسه، ٦٠-٦١.

(2) F. X. Pelletier, *Les Hommes qui Cuillent la vie: Les Imraguen*, France: Flammarion, 1986.

(3) Pierre Bonte, L'émirat de l'Adrar, p. 167.

(4) Ilhaide Hsaine, *Historical*, p. xxxi.

يصف ابنُ خلدون البربر -وهو أهم من أرَّخ لهم من القدماء- بأنهم: «قومٌ مرهوبٌ جانبهم، شديدٌ بأسهم، كثيرٌ جمعهم، مظاهرون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس ويونان والروم»[١]. إن أصلهم هو موضوع إشكال وجدل كبير بين المؤرخين، حيث تنازعت لوقتٍ أطروحتان: الأولىٰ قائلة إنهم قادمون من أوروبا، والثانية بأنهم قادمون من الشرق الأوسط. بعض القائلين بالأخيرة يعتمد التحليل الألسني ويقول بقرابة لغات البربر باللغات السامية ويربطها بالحِميَرية القديمة، وهو قول يتماشىٰ مع أيديولوجيا القبائل البيضانية التي تقولُ بنِسبة قبائل البربر الصنهاجية للعروبة والحميرية. غير أن دراسات أكثر معاصرة ومستفيدة من أنتروبولوجيا الأجسام والحفريات تميل إلىٰ الاعتقاد أن البربر هم خلاصة تعايش عرقي متعدّد في الآلاف السنين الحجرية السابقة، وأنهم نتاج لتطوِّر الإنسان القديم الذي عاش في شمال إفريقيا قبل الميلاد بسبعة آلاف عام[٢]، وهو ما يؤكد كلام ابن خلدون.

عاش البربر في قسميْن: بربر الشرق الذين ينتمون لأصل سامي وهم المعروفون بالبربر الليبيين الذين يظهرون في التاريخ المصري منذ ٣٣٠٠ ق.م؛ وبربر الغرب الذين ينتمون لأصل حامي، والذين عاشوا في المغرب والجزائر قبل أن يتدفّقوا إلىٰ موريتانيا. وقد سمّىٰ ابن خلدون هذا الانقسام الكبير في البربر انقسامًا بين البرنس والبتر. في المغرب أصبح البتر هم قبائل زناتة بينما تفرع البرنس إلىٰ قبائل مصمودة وصنهاجة التي نزلت إلىٰ الصحراء[٣]، وشكّلت نواة

---

(١) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي المغربي، تاريخ ابن خلدون المسمىٰ بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٧١، ص ١٠٤.

(٢) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٥، ١٩٩٦، ج ١ ص ٤٣.

وأيضًا:

Ilhaide Hsaine, Historical, p.xxxi.

وأيضًا:

Mercer, Spanish Sahara, p. 66;

وأيضًا:

Michael Brett & Elizabeth Fentress, *The Berbers*, Blackwell Publishers, 1997, p. 29.

(3) Ilahiane , p. xxxiii; Hoffmann, p.15.

شعب البيضان الموريتاني وأغلبيته. وفي الوقت الذي ازدهرت فيه الثقافة النيوليثية في مجال موريتانيا، حوالي ٧٠٠٠ قبل الميلاد، كان أجداد البربر يطوِّرون حضارة مختلفة في الشمال. في تونس بدأوا في تأسيس حضارة حجرية، وطوّروا ثقافةً غذائية معتمدة علىٰ طبخ الحلزون الغني بالبروتين، كما ظهرت لدىٰ بعضِهم ثقافة بناء القبور في فزان في ليبيا[١]، وهي الثقافة نفسها التي سيأخذونها معهم إلىٰ موريتانيا، وربما كانت بقايا القبور المشيّدة في الشمال في ازويرات الحالية شاهدةً عليها[٢].

لم يُعرّف البربر أنفسهم بأنهم بربر، بل كان هذا هو الاسم الذي أطلقه عليهم الأجانب من الرومان أو من العرب بسبب رطانة لغتهم بالنسبة إليهم. في المقابل كان البربر يشيرون إلىٰ أنفسهم بأنهم «الرجال الأحرار» أو الأمازيغ الذين يتكلّمون لغة التامازيمغت. هذه اللغة كانت اللغة العائلية، وإن كانت قد تشعّبت جدًا، لعدة شعوب متبعثرة في المنطقة منذ بواكير الأيام: النوميديون، الغرامانت، الجيتوليون. كل هذه الأسماء ستختفي لاحقًا ليبقىٰ مدلول واحد لكل هذه الشعوب: البربر[٣].

ولكن البربر الذين قدموا إلىٰ المجال في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد لم يكونوا البربر اللاّحقين أنفسهم؛ لذا تُشير إليهم بعض الدراسات بـ«**إرهاصات البربر**» (proto-Berber). وربما كان هؤلاء البربر الأخيرون أقدر من سابقيهم السود علىٰ مقاومة الحرارة والجفاف ليس فقط بسبب اختلاف نمط الحياة، وإنّما بسبب نوعية التقنية المستخدمة. فقد كانوا يستخدمون النحاس والحديد وكانوا يصنعون منهما الأسهم والفؤوس، وكان دخولهم إلىٰ الصحراء إيذانًا بعصر الحديد في المنطقة. وكانوا أيضًا يستخدمون الخيول والجرارات، وظلّوا في تنقُّل مستمرٍ بسبب الجفاف المتزايد[٤].

---

(1) Brett & Fentress, pp. 29-32.

(2) Ilahiane. Historical, p. xxxi; Mercer,p. 67.

(3) Brett & Fentress, pp 4-6; Ilhaide, p. xxx.

(4) Hodges, Historical, p. 2.; Baudouin Marcel, "Hache plate et Flèche en métal de Mauritanie,"

طوال الألفية سيبدأ البربر في التدفُّق في عمق مجال موريتانيا وسيزيد توغُّلهم في داخل الأراضي الجنوبية إلىٰ حدِّ الهجوم المتكرر علىٰ السود، بناة الحضارة التيشيتية-الولاتية في القرن الثالث قبل الميلاد، وهي الهجمات التي سيتم تدوينها بالتيفيناغ، كتابة البربر السائدة آنذاك[١]. وربما غيّرت هذه الهجمات من التنظيم الاجتماعي للمجتمعات السود وجعلتهم يتحوّلون من الكصور الصغيرة التي كانوا يسكنونها إلىٰ السكن علىٰ طرق المسالك القوافلية للاستفادة من التجارة والاحتماء في الغزاة منهم[٢].

❁ ❁ ❁

كانت مساهمة البربر في التاريخ الموريتاني هي إدخال الخيل والنحاس والحديد إلىٰ البلاد، وتلاحظ هذه الأشياء بوضوح في العربات التي تجرُّها الأحصنة والتي استقدُمت إلىٰ المجال في أوائل الألفية الأولىٰ قبل الميلاد، والتي يعود أثرها في الصحراء الوسطىٰ إلىٰ ١٠٠٠-١٥٠٠ ق. م، مكرِّسين بذلك بداية التاريخ وانتهاء ما قبل التاريخ في الصحراء. يدور اليوم نقاش حول أصل النحاس والحديد، وقد اتّسَمَت معظم النظريات ذات المركزية الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين بالاعتقاد بأنها مواد أدخلها الإيبريون من أوروبا إلىٰ المغرب ثمّ إلىٰ الجنوب؛ وهنالك خلاف: هل دخلت المغرب عن طريق أوروبا أم عن طريق الفينيقيِّين القادمين من الشرق[٣]. إلاّ أن من الواضح الآن أن البربر -وهم سكان المنطقة لقرون طويلة- هم من أدخلها إلىٰ موريتانيا[٤].

أما الحصان فقد كان في بداية الألفية سلاحًا حربيًا فتاكًا وآلة نقل متطوِّرة وسريعة. وقد تمّ استئناسه في الألفية الرابعة، وعُمِّمَت تقنيّة امتطائه وتداوله في

Bulletin de la Société préhistorique française, 1919, tome 16, N. 3. pp. 167-171.

(1) Cornevin, Secret, p.125

(2) Patrick J. Munson. "Archaeology and the Prehistoric Origins of the Ghana Empire". *The Journal of African History*, Vol. 21, No. 4(1980), pp. 457-466.

(3) Mercer,Spanish, 64;

العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص ٤٤، ص ٥٠-٥٤.

(4) Mercer, Spanish, 64

الألفية الثالثة قبل الميلاد، غير أنه لم يصل للصحراء إلا بعد ألفَيْ سنة أخرىٰ، ولم ينهض حضوره فيها بكثافة إلا في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد لأسباب تبدو واضحة لفيرنيه وهي: أنه لم يُستقدم أو يدجّن في المنطقة قبل الألفية، أما بعد الألف سنة فستصبح الصحراء جافة جدًا علىٰ حياته[١]. ولا ندري علىٰ وجه التحديد هل استخدمَ الصحراويون الخيل بشكل واسع النطاق من دون العربات أم لا. إن أكثرية الرسومات الجدارية للخيل في موريتانيا تظهرها مرتبطة بالعربات. وهذه العربات كانت عربات حجرية لأغراض قتالية أو صيدية أو فخرية انتشرت في عموم الصحراء، وبالأخص في المناطق السهلية الصلبة، مع الفترة ٧٠٠ ق.م[٢]. وبهذه العدة المتطوِّرة من الحديد والخيل دخل البربر الصحراء، ويُعتقد أنهم قاموا بهزيمة السود ودحرهم إلىٰ الجنوب، يساعدهم علىٰ ذلك الجفاف الذي هرب منه السكان الجنوبيون، وربما البافور، إلىٰ الجنوب باتجاه الواحات. وهي المطاردة التي تؤكدها دراسات المسح الجيني التاريخي للمنطقة[٣]. كما تؤكِّد دراسات العربات وجودًا كثيفًا لها في مجال موريتانيا مقارنة بدول الشرق والجنوب. بل لا يبدو أن بلادًا أخرىٰ في المنطقة -غير الجزائر والمغرب- قد شهدت حضورًا أكثر من موريتانيا لعربات البربر[٤]. ويبدو من هنا سليمًا موافقة بعض المؤرِّخين في توطيد طرد البربر القادمين من الشمال للسود المستقرين قبلهم في الصحراء[٥]، إلا أنّ هذا الطرد لم يكن طرد نفي، بل طرد تسيّد. فالواقع أن السود ظلّوا حاضرين دولة بني مِدرار[٦]. وكما هو واضِح من

---

(1) Vernet, La Mauritanie, 52

(٢) نفسه.

(3) Nourdin Harich, Marta D. Costa, Veronica Fernandes, et al. 2010, "The Trans-Saharan Slave Trade: Clues from Interpolation Analyses and High-resolution Characterization of Mitochondrial DNA Lineage," *Bio Medical Central Evolutionary Biology*, 2010, 3, 1. http://bmcevolbiol.biomedcentral.com.ezproxy2.library.arizona.edu/articles10/.1471/1186-2148-10-138.

(4) Yves & Christine Gauthier, "Des chars et des Tifinagh: étude aréale et correlations" *Cahiers de l'AARS*, 15, Décembre 2011, p. 94.

(5) Mercer, Spanish, 65

(٦) انظر مثلًا أعمال الأخباريين العرب الذين يردون في الفصول اللاحِقة من هذا الكِتاب كابن حوقل =

تاريخ السود في جنوب المغرب وشمال موريتانيا[١].

عمومًا، يسمّىٰ هذا العهد من الألفية ما قبل الميلادية بـ**عهد العربات**، وهو عهد سيستمر قرونًا سمحت فيها هذه العربات بالاحتكاك بالشعوب المحيطة بالبربر لعوامل كثيرة، ربما كان منها النسب والتاريخ القريب المشترك وأواصر التجارة والمنافع المشتركة أو العداوات. وقد نتج عن هذه الاحتكاكات تناقل التقنيات والاختراعات؛ إذ يُعتقد أن عربات البربر كانت اختراعَ الجيوتيليين أو الغرمانت. بل وتعتقد بعض التخمينات أن العربات في المجال الموريتاني ربما كانت من بقايا آثار مطاردات الغرامانتيين للفيلة والنعام في الشمال[٢]، وإن كان هذا يختزل الاستخدامات المتشعبة للعربات في المجال التي استطالت فترتها فيه موريتانيا لثلاثمائة عام.

في البداية بدأ أشباه البربر في استخدام الفيلة في جرِّ العربات والسير بها من واد تنمارات إلىٰ السمارة، كما تدلّ علىٰ ذلك رسوم وُجِدت في الجنوب المغربي[٣]، وهذا ينفي اقتصار قصة توظيف العربات علىٰ صيد الفيلة أو النعام. وفي بير أم كَرين وآدرار يبدو أنهم بدأوا في استخدام الخيل، أما في منطقة الساقية الحمراء فتظهر الرسوم الكهفية أنهم استخدموا الثيران بدلًا منها. ولاحقًا في القرن السابع إلىٰ القرن الرابع قبل الميلادي ستظهر هذه التقنية الجديدة في

= والبكري والمؤلِّف المراكِشي المهول الذي ألَّف كتاب الاستبصار. وعن الدِّراسات الحديثة للمِدرايين انظر مثلًا، محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتّىٰ القرن الرابع الهجري، الدار بيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٥. وانظر:

Patricia Crone, "Even an Ethiopian Slave", *Bulletin of School of Oriental and African Studies*, University of London, (BSOAS), (1994), 57 (1), 59-67. C. Dachraoui "La capitivité d'ibn Wasul, le rebel de sijilmasa", éLes Cahiers de Tunisie, (1956) 15, 295-269; Paul M. Love, jr "The Sufris of Sijilmasa: toward a history of the miedrarids", *The Journal of North African Studies, (2010) 15: 2, 173-188.*

(١) انظر مثلًا:

Choukri El Hamel, *Black Morocco: A History of Slavery, Race and Islam, Cambridge: Cambridge University Press, 2013.*

(٢) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٢٢.

(3) Mercer, Spanish, 65

تيشيت[١]، التي بقيَت بها حضارة مزدهرة لم يصل إليها نفوذ البربر بشكلٍ واضح إلا بعد قرون، ربّما بدءً من القرن الثالث الميلادي.

من الواضح أن العربات استُخدمت بشكل سلمي واقتصادي-اجتماعي[٢] في موريتانيا؛ نظرًا لاستخدام حيوانات غير قتالية وبطيئة كالثيران والفيلة. ويرجح فيرنيه أن تكون قد استخدمت أساسًا لقيمتها البذخية والاجتماعية وفي الصيد وفي تفاخر الزعماء[٣]، غير أن سكان الشمال كانوا يستخدمونها بشكل قتالي واضح كما فعل الإغريق في صراعاتهم مع الفينيقيين، وخصوصًا في حملة أغاتوكلس، طاغية سراقوسة ولاحقًا صقلية، في عام ٣١٠ ق.م. ولعلّ العربات القتالية التي تظهر صور نادرة لها في الرسوم في المجال الموريتاني هي اختراع مشرقي. كما من شبه المؤكد أن الخيل لم تصل إلىٰ هذا المجال إلا بعد تأهيلها واستخدامها في الحرب في منطقة النيل في الفترة ١٦٨٠-١٥٨٠ ق.م، عندما بدأ الهكسوس في غزو مصر مستخدمين الخيول والعربات. وبعد قرون وصلت هذه الآليات إلىٰ منطقة الصحراء، وقد دوّنَها هيرودتس بأسلوب شهير عندما ذكر أن الجيتوليين والغارامانتيين استخدموها في مهاجمة السود الأثيوبيين[٤] وربما استعبدوهم بها[٥]. وكانت هذه الهجمات هجمات الشمال المصري والليبي والمغاربي علىٰ الجنوب من منطقة فزّان تجاه النيجر والصحراء، وليس من الشرق إلىٰ الغرب[٦]. ومن الواضح أنه في موريتانيا ستتمّ إعادة هذا السيناريو: البربر القادمون من الشمال يقصون السود المتقهقرين إلىٰ الجنوب أو يمتزجون معهم.

---

(1) Mercer, Spanish, 65, Vernet, La Mauritanie, 53-54

(٢) تذهب بعض التأويلات إلىٰ اعتبار أن العربات استخدمت في التجارة عبر الصحراء ونقل البضائع، وهو ما يبدو ضعيفًا بالنظر إلىٰ الأدلة، انظر:

Robin C.C. Law, "The Garamantes and Trans-Saharan Enterprise in Classical Times," *Journal of African History* 8(1967): 181-200.

(3) Vernet, 118

(4) Herodotus, The History of Herodotus: translated from the Greek by Isaac Littelbury. London: Midwinter and Battesworth, vol 1, 436

(5) Robin Law, The Garamants, 183

(6) Mercer, Spanish, 64

لم تأتِ العربات إلىٰ الصحراء بمفردها. فربما احتاجت للحديد والنحاس[١]، وهو ما تذهب إليه الحفرية نيكول لامبير فالراجح التي ربطت العربات بعصر النحاس، مع أن فيرنيه لا يسلِّمُ بحاجتها للحديد أو النحاس[٢]. ولكن إذا ذهبنا مع كامبس ولامبير، فالرّاجِحُ أن جزءًا كبيرًا من تفوّق القادمين من الشمال عادَ لتمكُّنِهم من أسرار الحديد والنحاس. وتدلّ الرسومات التي تُعبِّر عن حضارة البربر علىٰ استخدام موسّعٍ لهما، حيث وُجدت رسومات لفؤوس ونصال حديدية يبدو أنها كانت تستخدم في صيد الفيلة[٣]. وتعتقد بعض التقاليد الشفهية البيضانية أن البافور هم من علّم البربر تقنية صناعة الحديد، فقد كانوا مهرة في الصناعات الحرفية حيث طوّروا أيضًا فؤوسًا حجرية عرفها الأهالي البيضان لاحقًا بفؤوس الذئاب أو «**كَادوم الذيب**»[٤].

لقد اعتُقِدَ طويلًا أن تقنية النحاس كانت إنتاجًا مشرقيًا استوردته الصحراء. فالصورة التقليدية كانت أن تقنية النحاس وصلت إلىٰ مصر في منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، حيث بُنيَ منجم نحاسي في سيناء، وإن كان لم يُرضِ الحاجة الفرعونية آنذاك؛ إذ زاد اعتماد الفراعنة علىٰ المناجم النحاسية في قبرص وآسيا. وحسب هذا التصور فلم يصل البرونز (الزّنك والخارَصِين والتُوتِياء والقصدير) إلىٰ ليبيا إلاّ بعد قرون، حيث تُظهِرُ صور الفرعون منمتحب نشوتَه بغَنْمٍ أسلاب برونزية منهم (١٢٢٣-١٢٣٦ ق.م). وحسب هذا التصوُّر، فإن انتقال البرونز إلىٰ الصحراء لم يحدث بعد قرنٍ من هذا عندما وصل الفينيقيون للمنطقة، جالبين معهم نفائس البرونز ليتبادلوها مع سكان المنطقة في الشمال الأعلىٰ[٥]. إلاّ أن هذا التصوُّر قد فُنِّدَ أولًا الآن بأعمال جان مالهوم الذي أثبت وجود حضارة برونزية قبل ذلك بقرون في منطقة هقّار وفي المغرب (١٢٠٠-١٩٠٠ ق.م).

---

(١) العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص ٤٦.

(2) Vernet, La Mauritanie, 64

(٣) العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص ٤٣- ٤٦.

(4) Lucas, *Considerations*, 161

(٥) العروي مجمل تاريخ المغرب، ص ٤٣-٤٦ وص ٥١.

ولكن أهمّ الدلائل علىٰ عصر البرونز المغاربي قد وُجدت في موريتانيا في مطلع القرن العشرين[١]؛ وذلك بفضل الأعمال الاستكشافية في عام ١٩١٢ للسيدة كورفا، حيث اكتُشِفَ ١٣٩ أثرًا -حتّىٰ العام ١٩٧١- من خناجر وأسهم ومطرقات وأقضبة حديدية وصنانير، كما اكتُشِفَتْ أختام وقلائد وأقراط وبعض الآثار من القطع النحاسية[٢]. وإذا كانت الفترة النحاسية هي فترة تكاد تكون مفقودة في التاريخ المغربي، فإن الحفريات في موريتانيا وجدت الحلقة الضائعة.

❁ ❁ ❁

ربما اعتمدت تقنية أسلاف البربر الموريتانيين علىٰ الحرب أكثر من اعتمادها علىٰ الأنشطة الزراعية أو الرعوية أو الصيدية، عكس سابقيهم. وفي هذا السياق قاموا بالاعتماد علىٰ القصدير والزنك ثم النحاس في بناء الأسلحة وتهيئة العربات. وفي شمال موريتانيا وغربها وُجِدت أسلحتهم النحاسية من أسهم وحراب، ويبدو أنها ساعدتهم في حماية أنفسِهم وفي التوّسع إلىٰ الجنوب. ويتبيّن أنهم قاموا ببناء منجم نحاسي في **كهف الخفافيش** الواقع في كَلب أم اكَرين بأكجوجت وفي لمدنه قرب أكجوجت (قامت باستكشافهما نيكول لامبير). لقد تمّ التنقيب عن النحاس في قلب أم كَرين مرات من القرن التاسع قبل الميلاد إلىٰ القرن الثالث[٣]، بل إن فيرنيه يشير إلىٰ أن تواريخ استغلال منجم أكجوجت تعود إلىٰ ٢٨٠٠ ق.م، حيث أنشِئت ورشات حانوتية معدنية علىٰ طول منطقة أمَطْليش الواقعة علىٰ بعد خمسين كيلومترًا من أكجوجت[٤]، عملَ فيها من يبدو أنهم الحدادون الموريتانيون الأوائل. اليوم وبعد قرابة ٣٠٠٠ عام، ما زال قلب أم كَرين يمدّ الموريتانيين بالنحاس وما زال يشكل عصبًا اقتصاديًا مهمًا لحياة البلاد وثرائها.

---

(1) Vernet, Un Habitat, 83-90.

(2) Raymond Mauny. Trans-Saharan Contact and the Iron Age in West Africa. In J. D. Fage (Ed.) The Cambridge history of Africa: From 500 BC to AD 1050. Cambridge: Cambridge University Press, 1975, pp. 272-335.

(٣) نفسه، ص ٣٢٠.

(4) Vernet, *La Mauritanie*,p. 57; Vernet, *Un Habitat*, pp. 83-90.

كان البربر الأوائل يقومون بالتنقيب عن النحاس في كلّ المنطقة، وكانوا يستخدمون الأفران من أجل صنع الآليات النحاسية بشكل سريع بعد التنقيب، كما كانوا يفعلون ذلك في منجم مدينة الصبّات (خمسين كيلومترًا شرق أكجوجت) ومنجم لمدنة في أكَجوجت الحالية، والذي لم يعد اليوم غير مفازةٍ قفراء[١]. وكانت ترسانة الأسلحة والأدوات المصنعة توزَّع في بقية المدن، حيث وجدت منها آثارٌ في تيشيت وولاتة[٢] وفي نواكشوط. ومن البيِّن أنّ كلّ هذا النشاط كان يحتاج الىٰ حركة واسعة، ولقد بقي من آثار هذه العربات حركاتها علىٰ مئات المواقع التي ترفعُها بعض الإحالات إلىٰ ٨٠٠ موقع منتشرة في عموم البلاد[٣].

وبطبيعة الحال، فإن العربات أتت معها أيضًا بالثقافة وبدأ تأثير الحضارة الليبية المزدهرة في فزان في الوصول إلىٰ الغرب، حيث تظهر الكتابات بالخط الليبي في الشمال في منطقة السمارة[٤]. كان عموم المنطقة الليبية والجزائرية والصحراوية منطقة ازدهار للبربر، وما زالت إلىٰ اليوم تمثِّلُ مركز ثقل لغتهم وثقافتهم[٥]. ويظهر تزامن كتابة التينيفاغ في الصحراء وليبيا مع انتشار اللغة التي كانت توحِّدُ سكان الصحراء وشمال إفريقيا. ويتزامن تسجيل هذه اللغة إلىٰ موريتانيا مع عصر العربات، ما قد يعني أن عناصر من الحضارة الغرامانتية التي كانت مزدهرة في ليبيا قد تسلّلت إلىٰ الصحراء (موريتانيا).

❁ ❁ ❁

قبيل القرن التاسع عشر قبل الميلاد بدأ نمط إنتاج جديد يزدهر في الصحراء: التجارة[٦]. وربما قامت طفرتها تلازمًا مع الحركة النشطة في المعادن. وما نعرفه هو أنّه ابتداءً من هذا القرن رسَىٰ الفينيقيون، التجار القادمون من الشرق، علىٰ شواطئ البحر الأبيض المتوسط[٧]، وكانوا يجلبون من بلدانهم في لبنان الحالي

(1) Mauny, *Trans-Saharan Contact*, 321.

(٢) نفسه، ص ٣٢١.

(٣) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٢١.

(4) Mercer, 66

(5) Brett & Fentress, *The Berbers*, 2-3

(6) Mercer, 66

(7) Clark Howell. "Origin and Evolution of African Hominidae", 117.

بضائعَ مختلفة فيعرضونها علىٰ السواحل ليأتيَ الأهالي البربر لمقايضتها بالذهب، كما نقل ذلك هيرودتس[١]. وفي البداية كان التبادل التجاري بطيئًا، غير أنه ازدهر علىٰ مرِّ العصور وربما كان أساسيًا في خلق تراكم مالي ساهم في إنتاج الممالك التجارية وتسريح العير والقوافل التي ستزدهر علىٰ هامشها أنظمة الحماية والتنظيم العسكري القبائلي.

يجوز لنا هذا التخمين بالنظر إلىٰ تأثير الحركة التجارية التبادلية في الشمال ووضوح أثرها في الصحراء؛ إذْ كانَ البحث عن النحاس الصحراوي بغرض تقديمه للشمال المغربي الذي يحتاجه. ومع ازدهار الحركة التجارية نبعت الحاجة للجنوب الموريتاني ونهضَ التنقيب في المناجم النحاسية في انشيري. ونعرف أن تغلغل البربر في موريتانيا ازدادَ في هذه الفترة التجارية وزاد معه احتكاكهم مع أقربائهم في الجنوب، فوصل الغرامانت (الجرمنتيون) والجيتوليون إلىٰ الشمال كما تدلّ علىٰ ذلك الحركة النشطة لعرباتهم، وستظهر كتاباتهم بالخط التينيفاغي في جدران البلاد. ولم يكن الغارامانت مقيمين حصرًا بالصحراء؛ إذ امتدوا أساسًا في جنوب ليبيا والجزائر، ووصلت فئات منهم إلىٰ شمال موريتانيا وشرقها. ولكن الجيتوليين، بعكسِهم، توطّدوا فيها، والراجح -وخصوصًا في محاورة مع التصورات الشعبية الموريتانية- أن مركز حركتهم كان في منطقة «الحنك» إلىٰ بدايات القرن العشرين[٢].

كان الغرامانت بربرًا ازدهروا في المنطقة الكبيرة جنوب ليبيا وشرقًا وغربًا في التشاد وشمال صحراء موريتانيا، حيث بدأوا في دحر الأثيوبيين السود، الذين خمّن البعض أنّهم ربما كانوا بافورًا أيضًا[٣]. وقد عرف هيرودوتس الغرامانت ونقل الانطباعات التي وصلت إليه عنهم، والتي تجمع بين تقدير قوتهم وأسطرة حياتهم، كاتبًا أنهم «شعبٌ كثيفٌ وقويٌ ويسكن في الواحات، ويعملُ في استخراج الملح من الأرض»؛ وقال إنهم «كانوا يأكلون الثعابين والسحالي وأنواعًا كثيرة من الزواحف، ويتكلّمون لغة لا مثيل لها علىٰ وجه الأرض، وربما

(1) Peter L. Bernstein. *The Power of Gold: the History of an Obsession*, New York; Wiley, 2000, p. 69. Sabatino Moscati, *The Phoenicians*. London; New York: I. B. Tauris, 2001, p. 94.

(2) Lucas, p.169.

(3) Mercer, Spanish, 65

هي حفيف الخفافيش وليست من كلام البشر»[١]. وما يهمُّ في علاقة الغرامانت والعالم هو ربطهم للعوالم التجارية بالأملاح وغيرها من البضائع. فقد كان الملح مهمًا للتجارة، وربما بامتلاك العربات التي دحروا بها الأثيوبيين أمكنهم شحنه والمتاجرة به بين الشمال حيث الفينيقيون، والجنوب، حيث الصحراء وربما السودان. وبفضل التلاقي التجاري بين البربر والفينيقيين في تجارة النحاس والبرونز والملح والأحجار الكريمة والجلود أمكن استمرار تدفق البربر الأوائل إلىٰ موريتانيا وتفوّقهم علىٰ السكان المزارعين الأضعف حربيًا.

علىٰ أن عوامل التلاقي بين سكان الصحراء القدماء وجيرانهم الغرامانتيين كثيرة، ولا تقتصر فقط علىٰ شحن الأملاح أو تسيير العربات العابرة للصحراء. بل إنه من الممكن، بل والمحتمل، أن أسلاف الطوارق هؤلاء قد تاجروا في المنطقة في موريتانيا في القرون العديدة قبل الميلاد. فالتاريخ يذكر أن الغرامانتيين تاجروا بالعبيد والقمح والملح، وقايضوها بالخمر وزيت الزيتون والمصابيح الزيتية، كما أنهم حملوا أحجار الأمازونيت الغالية إلىٰ جنوب المملكة الشرقية في جبال تيبستي في التشاد الحالية، حسب المؤرخَيْن بليني وسترابو[٢].

لقد نقلنا صورة عهد تجاري يتقدّمه الغرامانت، ولكن وبطبيعة الحال فإن هذا لا يعني غياب أي أثر للحياة الصيدية أو الرعوية والبدوية. فقد كان النوميديون في المجال المغربي الجزائري الموريتاني صيادين رحلًا، وقد كان كثيرٌ من الغارامانت رعاة بقريين يعتمدون علىٰ ألبان البقر ولحومها، بالإضافة إلىٰ أنهم كانوا محاربين وفرسانًا ومتاجرين في الحجارة الكريمة مع القرطاجيين في الشمال[٣]. وربما كان الرعي عاملًا مساهمًا في التصحر، فبالإضافة إلىٰ انحراف مسار البحيرات فإن القطعان ساهمت في إفناء الغطاء الأخضر في وقت تراجعت فيه الأمطار، مما زاد من حجم التصحر[٤]. وربما بسبب غياب الاعتماد علىٰ

(1) Herodotus, The History of Herodotus: translated from the Greek by Isaac Littelbury. London: Midwinter and Battesworth, 1773, vol 1, 436.

(2) Law, *The Garamantes*.

(٣) ليكا، ص ١٦٨.

(4) E. M. Bovill. *The Golden Trade of the Moors*. Oxford: Oxford University Press, 1970, 10-11; Lucas, Consideration, 168.

الثروة الطبيعية بدأت المنطقة في الازدهار تجاريًا. وقد حدث هذا أولًا في الشمال علىٰ الأقل منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، عندما بدأ الفينيقيون في تشييد موانٍ تجارية في شمال غرب الجزائر في واد تافنا، وتحديدًا في سيغا ثم في الصويرة في غرب المغرب، التي ستستمرُّ قرنًا بعد ذلك. ثم تدلّ الآثار علىٰ تغلغل التجارة في الصحراء من خلال العربات والنحاس.

❁ ❁ ❁

كان هذا عصر الممالك المتاجرة: الفينيقيون[١] والغرامانتيون والقرطاجيون. وقد أسفرت تطلُّعاتُ هؤلاء أيضًا عن مغامرات تجارية ربما كان لها الفضل في جَسر الصحراء. ولقد توطّد لدىٰ الأجيال اللاحقة أن القرطاجيين وصلوا إلىٰ غرب إفريقيا وخصوصًا إلىٰ السواحل الموريتانية مع القرن الخامس قبل الميلاد، عندما أقاموا اتصالات مباشرة مع الممالك التجارية من دون وسيط، وذلك من خلال أحد أكبر البحارة والمكتشفين في القرون العتيقة: حنّون القرطاجي، الذي وصل إلىٰ ما يعتقد الكثيرون أنه حوض آرغين أو الساقية الحمراء. إلاّ أن من الأرجح الآن أن أجزاء كثيرة من قصة سفرية حنّون كانت وضعًا من خيال كاتب الرحلة، وأن الرحالة القرطاجي لم يصل إلىٰ ما وصل إليه في كتابه، أو الكتاب المنسوب إليه[٢]. ولكن القصة توطّدت عبر الأجيال، بل إن البعض ذهب بعيدًا إلىٰ الحديث عن مخلّفات سكانية تركها حنّون في موريتانيا[٣].

وعلىٰ العموم كانت لقرطاجة رغبات تجارية، مؤسطَرة أو حقيقية، في

---

(١) ربما كان الفينيقيون هم أصل ثقافة الكتابة البربرية، التيفيناغ، التي توجد آثارها في موريتانيا في هذه الفترة.

P. Salma. The Sahara in Classic antiquity. Unesco International Scientific Committee for the Drafting of a General History of Africa. Ancient Civilizations of Africa. UNESCCO, 1981, 513-533.

(2) Masonen, Pekka; Fisher, Humphrey J. (1996), "Not quite Venus from the waves: The Almoravid conquest of Ghana in the modern historiography of Western Africa", *History in Africa* 23: 197-232,

(٣) الحسين بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط: ما قبل التاريخ إلىٰ الانتشار الحساني، نواكشوط: مطبعة دار الفكر، ٢٠١٠، ص ٤٧-٤٨.

الصحراء. كانت مملكة شُيِّدت في القرن التاسع قبل الميلاد من قبل هاربين سياسيين من صور الفينيقية، جنوبَ لبنان، من بينهم أخت الملك، ثم تطوّرت المملكة في القرون اللاحقة لتصبح إحدىٰ أكبر المدن التجارية في المنطقة. في منتصف القرن الخامس (٤٥٠) لما قبل الميلاد قام القرطاجنيون الذين تحوّلوا إلىٰ إحدىٰ أكبر الممالك التجارية في البحر الأبيض المتوسط، بالتطلّع لما وراء الصحراء وجنوب المغرب. وتذهب الكتابة عن حنّون إلىٰ أنهم قاموا بإعداد رحلة مكوّنة من ١٦ سفينة من السفن العابرة للمسافات الكبيرة، وفي كل منها خمسون مجدافًا لاكتشاف غرب إفريقيا وتأسيس مستعمرات فيها إذا دعت الحاجة. ويعتقد الكثيرون أن هدف حنّون كان قطع الطريق علىٰ الوسطاء التجاريين وتجار الذهب مع سكان الصحراء، بغرض الاتصال بهؤلاء بشكل مباشر. فقد كانوا يتاجرون مع الغارامنت وسكان غرب إفريقيا وصحرائها الغنية بالذهب. بل إن الآثار في موريتانيا تدلّ علىٰ نقود رومانية في السنوات القليلة قبل الميلاد، مرجِّحة تجارةً عابرة للصحراء، إما برًا أو بحرًا، في الذهب[١].

ورغم أن تجارة الذهب ما كانت أمرًا عاديًا في حدّ ذاتِها، إلا أن المشاركة الصحراوية في تجارة البحر الأبيض المتوسط كانت عادية ومتواضعة، وربما ضئيلة[٢]. وربما لم يتعلّق الأمر بأكثر من بضائع فردية وكميات ضئيلة من العاج وريش النعام والصوف والجلود والصباغة الأرجوانية كان يأتي بها الصيادون واللاقطون البدو لمقايضتها مع تجار الشمال. ونعرف أن الغرامنت كانوا يتاجرون مع القرطاجيين ويأتونهم بالحجارة الكريمة التي عُرِفت عند الأوروبيِّين بـ«**حجارة القرطاجيين**»، الذين كانوا بدورهم يتاجرون بها في حوض البحر الأبيض المتوسط[٣]. وربما تاجر الغرامنت في العبيد الأثيوبيين الذين تكلّم هيرودوتس عن مطاردتهم لهم[٤]. ولكن الصحراء الفقيرة كانت موضع حلم واستخيال وآمالٍ من لدن تجار الشمال، بأن تكون مصدر مادتين مهمتين: الذهب والجواهر. وكان

(1) Law, the Garamantes.

(٢) العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص ١١١.

(3) Bovill, 21.

(٤) نفسه، ص ٢١-٢٢.

الذهب معدنًا غاليًا؛ ولذا تم تجهيز حملة حنّون للكشف عنه وربما لتحصيل العبيد[١]. وربما كانت قصة رحلة حنّون نتيجة نوع من أسطرة ثروات الصحراء والبحث عن «**إل دورادو**» بها، أسطرةٌ لن تنعدم لدىً كتاب الرحلات بعد حنّون، من العرب إلىٰ الرومان والأوروبيين.

قاد حنّون أسطولًا ضخمًا فيه آلاف البحارة ووصل جزيرة هرن التي سماها سرن، والتي تقع الآن في الصحراء الغربية[٢]. وكانت هذه هي المرحلة الثالثة التي وصل فيها إلىٰ المنطقة المتاخمة لموريتانيا الحالية حسب ما «كتبه» في «كتابه». في تلك المنطقة يبدو أنه لم يجد غيرَ بعض الأهالي البُسطاء الذين كانوا يلبسون الجلود والذين قاموا برشقه وصحبه بالحجارة ومنعوهم من دخول الجزيرة. بعد مسيرة اثني عشر يومًا هبطَ حنّون إلىٰ ما اعتقد الكثيرون أنه جنوب موريتانيا، حيث قابل قومًا سودًا شبههم بالأثيوبيين:

وأبحرنا مدة اثني عشر يومًا محاذين الساحل الذي كان يَعْمُرُه الأثيوبيون، الذين هربوا منَّا ولم ينتظِروا. ولم يستطع الليكسيون الذين كانوا معنا أن يَفْهَموا كلامهم. ولكنّنا في اليوم الموالي وجدنا جبالًا من الغابات، وكانت أعمدة الأشجار متشتتة ومُتعدِّدة الأنواع. أبحرنا قرب هذه الجبال مدة يومين ثم وصلنا إلىٰ بحرٍ توجد داخله أرض شاهدنا فيها نارًا تعلو من كل الجهات كل حين من الوقت، أحيانًا تخبو وأحيانا تهبط[٣].

لقد وقف الكثيرون عند الوصف الذي قدمه حنّون للجزيرة المذكورة، وبينما ذهب بعض الباحثين إلىٰ التشكيك في الرحلة نصًا وحفريًا وتقنيًا وأدبيًا[٤]، فقد

---

(١) نفسه، ص ٢٣-٢٤.

(٢) يعتبرها ليكا في وادي درعة التي سكنها الليكسيون في تلك الفترة، وفي جنوبهم سكن التوغوليتيون.
Lucas, Considerstions, 167

(٣) انظر: رحلة حنّون.
Hanno, *The Periplus of Hanno: a voyage of discovery down the west African coast by a Carthaginian Admiral of Fifth century B.C.* Trns. Wilfred Schoff. Philadelphia: Commercial Meuseum, 1912, 4.

(4) D. Jacques-Meunié. *Le Maroc saharien: des origines à 1670.* Librairie Klincksieck, 1982, p. 163-164. Bovill , 26.

اعتبر البعضُ الآخر أنها تقع في المجال المغربي في واد تنسيف أو في المجال الصحراوي-الغربي في واد الذهب[١]، بينما ذهب آخرون إلىٰ الاعتماد علىٰ الوصف الذي قدّمه المؤرخ الإغريقي للجزيرة، بليني الكبير، وارتأوا أنها جزيرة هيرون في حوض آرغين الموريتاني[٢].

ومهما يكن من أمرٍ، فإن رغبات قرطاجة في الصحراء تجاوزت محاولة حنّون أو تخيُّلات لاحقيه له؛ فبعده وفي ٣٣٧ ق.م، وصل رحالة قرطاجي آخر للمنطقة هو سكيلاكس، الذي قدِم من البحر الأبيض المتوسط[٣]. وواضح أن القرطاجيين بذلوا جهدًا في إقامة جسورٍ تجارية مع ناسِ الصحراء، وتلازم هذا مع طفرة تجارة الملح والنحاس والحركة النشطة للعربات في الشمال. ولكن المنافسة بين الرومان والقرطاجيين وصراع المصالح أدّىٰ إلىٰ حروب ضروس بينهما، هي **الحروب البونية** التي تمّ فيها تدمير قرطاجة في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. وبدورِه أدّىٰ هذا التدمير إلىٰ توقف التجارة المتوسطية مع الأمازيغ في الشمال[٤]، وتوقفت رغبات استكشاف أغوار الصحراء وثرواتها.

في الشمال المغاربي، سرعان ما انتظم البربر في تجمعات تحوّلت إلىٰ ممالك ملأت الفراغ الذي خلفه زوال قرطاجة. وفي عام ٢٠٢ ق.م تأسّست مملكة نوميديا البربرية في الجزائر الحالية وتونس. وكان شِقّاها قد انقسَما إزاء الموقف من قرطاجة بين مناصر ومؤيد، غير أن سقوط الأخيرة أعطىٰ قوة استراتيجية لنوميديا، ووطّد ملِكها، ماسينيا، ووسّع نفوذه. فيما تعزّزت سلطة الغارامانتيين في جنوب نوميديا وفي شرقها الجنوبي، وفي الشمال المغربي قامت مملكة موريتانيا الطنجية.

حافظ البربر علىٰ بعض الاستقلال عن الممالك الكبيرة المحيطة بهم من قرطاجة إلىٰ روما، وذلك في إدارة شؤونهم الداخلية، غير أن تمدُّد هذه الممالك وفرضها المغارم والمكوس سرعان ما تحدّىٰ الحرية السياسية للبربر. ولم تنجح

---

(1) D. Jacques-Meunié. *Le Maroc saharien*, 163-164.

(2) Mercer, 70

(٣) نفسه، ص ٧١.

(٤) نفسه، ص ٧٠.

ثورات البربر في لجم تمدد الإمبراطورية الرومانية عن السيطرة علىٰ أعالي الشمال المغاربي. وعندما فشلت انتفاضة يوغورثن (١٠٤ قزم-١٦٠ قزم) تحوّلت مناطق البربر في الأعالي الإفريقية من محميات إلىٰ مقاطعتَيْن رومانيتَيْن: موراتانيا القيصرية (غرب الجزائر)، وموراتانيا الطنجية (شمال المغرب). إذن، يعود اسم موريتانيا إلىٰ استذكار حداثي واستعماري لاسم مملكة رومانية قامت في شمال إفريقيا. وأتت هذه التسمية التي تعني **بلاد المور** للدلالة علىٰ السكان البربر الذين كانوا يسكنون المنطقة منقسمين إلىٰ المور والجيتوليين. وفي القرن الأول ميّز بليني الأكبر (٧٩م-٢٣م) بين «المور» والجيتوليين والغرامات والأثيوبيين البيض والكاناريين والبيروسيين. ولكن القرون اللاحقة ستعرف كلّ هؤلاء من موريتانيا العليا إلىٰ موريتانيا اللاحقة باسم البربر. لقد عرفهم الإغريق بالموريسيكيين، أما في اللاتينية فكانوا «**المور**». ستصبح هذه الكلمة هي الاسم القاعدي للمغرب (موروكو)[١] وموريتانيا. ويستجيب هذا لما أدركَه العرب من أنباء جنوب المغرب في القرن الثامن، إذّ كان هؤلاء السود مؤسِسّين لدولة بني مِدرار الصفرية، ويبدو أنّهم لم يكونوا مجرّد مراسِلين تجاريين مع غانة وإنّما كانوا مجتمعًا ذا نفوذ في سِجلماسة القرن الثامن، من خِلال زعيمِهم، عيسى بن مِزْيَد، أوّل رئيس للدولة المِدرارية، والذي لم يُقضَ عليه إلّا بعد خمسة عشر سنة، ربما نتيجة اضمِحلال الساكنة السوداء لسِجلماسة[٢]. وربّما كانت إشارة بليني والميلي تُحيل إلىٰ حرّة حركة الزنوج.

وربما كانت الكلمة تعني المتجوِّلين أو العابرين[٣]. وربما لم يكن هنالك اسم أكثر من هذا تعبيرًا في الألفية الأولىٰ قبل الميلاد عن هذه الشعوب العريضة.

---

(١) الذائع أن «موروكو» أو «موريكوس» هي اسم غربي مشتق من «مراكش»، غير أننا أوردنا نسبة «المور» إليها؛ لأنها -بغض النظر عن أصل الاشتقاق- تتنزل في بعض التصورات الغربية أنها مشتقة من «المور».

(٢) انظر محمود إسماعيل عبد الرّازق، الخوارِج في بلاد المغرب، ١١٣-١١٩؛ و: Paul M Love, 177-178.

(3) Pliny the Elder, *The Natural History of Pliny*. Trans. John Bostock &H. T. Riley. London: George Bell and Sons,1893, Vol 1, 383.

- ٣ -

أرض البيض والسود (حوالي ٣٠٠ ق.م-٧٠٠م)

«يوجدون في آخر الأرض»

هوميروس عن سكان غرب إفريقيا

رغم أن الجغرافيين اليونان والرومان تحدّثوا عن سكان الصحراء جنوب المغرب، إلا أن ما نقلوه ظلّ مُبهَمًا ويكتنِفه الغموض وعدم الاستطراد. وما زالت الصورة غير واضحة تمامًا عن سكان الصحراء وجنوبها في هذه المئات الميلادية الأولىٰ وما قبلها. وجلّ ما أمكن لهؤلاء نقله هو صور سريعة، وفي الأغلب تخمينات وأحكام قيمة تصل أحيانًا إلىٰ حد الأساطير أو الشيطنة والاستشراقية المبكِّرة. ولم يكن ما نقله هيرودوتس عن عدم بشرية الغارامنت وفحيحهم أمرًا خاصًا به، فقد نقل بليني الأكبر أمرًا شبيهًا عن عموم سكان الصحراء والسودان. فبالنسبة إليه كان أولئك الذين كانوا في شرق الصحراء إلىٰ جهة مصر «أنصاف بشر وأنصاف وحوش». أما الأطلانطيون الموجودون في جهة الغرب الصحراوي إلىٰ جهة المغرب وجنوبه فقد «فقدوا صفاتهم البشرية». أما بقية سكان صحراء غرب إفريقيا من التروغليديين، أعداء الغارامانت، فقد كانت بيوتهم الحُفَر الأرضية وكان مأكلهم جلود الأفاعي، ولم يكن لهم من الأصوات إلا النقيق، ولم تكن لهم لغة يتواصلون بها. ولم يكن للبليميين -وهم قوم آخرون في المجال- رؤوس، وإنما كانت أفواههم في صدورهم. أما الغارامانت فلم يكن لهم نظامٌ للزواج وكانوا «يتناكحون كالحيوانات». وفي المجال الموريتاني

الحالي فيما وراء بلاد الجيتوليين لم يكن ثمّة غير الصحاري والغابات والحرّ الشديد. فقد اكتشف القائد الروماني الكبير، غايوس سيوتنيوس بولينيوس، عندما وصل إلىٰ نهر زيز الواقع جنوب المغرب في سجلماسة في عام ٤٢م، أن تلك «المناطق غير قابلة للسكن من شدة الحرّ، رغم أنه زارها في فصل الشتاء»[١]. وقد علم بليني من مصدره معلومات تصنيفية عن سكان جنوب سجلماسة في الصحراء. إنهم: «شعب يسكن في الغابات المحاذية، المليئة بكافة أنواع الفيلة والدواب المتوحشة والأفاعي، واسمهم الكناريون لأنهم يتقاسمون طعامهم مع القردة كما يتقاسمون معهم أمعاء الحيوانات المتوحشة»[٢].

ومن الواضح من هذه الصور مدىٰ استهوان واستوحاش الصحراء وحياتها في النظرة الإغريقية والرومانية. ولا يتعلّقُ الأمر فقط بشمال الصحراء، حيث قَطَنَ أسلاف البربر من الكناريين والغارامانت. فوراء تلك الصحاري، حيث سكن أسلاف السود الموريتانيين والسودانيين، تحدثَ بليني بوتيرة شبيهة عن الأثيوبيين، الذين ذكر هيرودوتس تعبيد الغارامانت لهم، والذين كانوا يسكنون في السنغال وغامبيا وربما جنوب موريتانيا الحالية ووسطها. ذكر بليني أن هؤلاء كانوا يعيشون قرب النهر الزنجي الذي شبّهه بالنيل، وأحال إلىٰ إشارة لهوميروس عن السود الأثيوبيين في جنوب الصحراء أنهم «الأبعد من بين كل البشر»[٣]. بالنسبة إلىٰ روما كان هؤلاء يقعون خارج مجال السياسة والسيادة. ولكن علاقاتهم مع المقاطعات الرومانية ظلّت محسوسة إذ يُعتقَدُ أنّهم أخذوا ثقافة الجمل من عند الرومان[٤]. وعندما قمع الرومان بقيادة قائدهم سيوتونيوس بولينوس البربر وطردوهم جنوب الأطلس، أو جنوب سجلماسة وفي وادي زيز (وهو نهر غريس) والجبل الأسود، فإن هؤلاء هربوا إلىٰ الصحراء في الجنوب[٥].

---

(1) Pliny the Elder, *The Natural History of Pliny*. Trans. John Bostock &H. T. Riley. (London: George Bell and Sons,1893), Vol 1, 383-384, 403-406.

(٢) نفسه، ص ٣٨٣.

(٣) نفسه، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(4) Richard Bulliet, *The Camel and the Wheel* (New York: Columbia University Press, 1990), 111-140.

(5) Pliny The Elder, 384-383.

وبطبيعة الحال، فإن حياة الصحراء كانت في حقيقتها متنوعة، حتىٰ في حواشي وهوامش نصوص من اختزلها. بل ويمكننا بالحفر في هذه الحواشي استنقاذ هويات وأنماط عيش متعددّة. بعض هذه الهويات ضاع من الإحالات اللاحقة أو غُمِّض وعُتِّمَ وهُمِّشَ. إلاّ أنّ الصورة الباقيّة تشير إلىٰ أنه في غرب هذه الصحراء، غرب إفريقيا، كان يتجوّل قبيل من الجيتوليين عرفه بليني باسم «بانيور»، ورأىٰ البعض أن يعرب الاسم إلىٰ «بني عور»، وهم شعب تصفه المصادر أنه عارٍ في الصحراء ووسط المغرب[١]. وربّما تعلّق الأمر بتمدّدٍ واسع له. ولكننا نعرفُ من بقيّة المصادر أن المنطقة كانت أيضًا مطروقة من قبل الفاروسيين والأثيوبيين والجيتوليين. بعضُ هؤلاء كان محاربًا وبعضُهم كان بدويًا منميًّا، ولم تغب من بينهم شعوب متاجرة أو مزارعة. وعلىٰ العموم كانت الصحراء فيما بعد الميلاد مأوىٰ واسعًا للداخلين وللخارجين من بربر الشمال، ولم يتعلّق الأمر فقط بالغرامانت والجيتوليين وقبائلهم؛ فعندما قُمِعت ثورة اليهود في برقة في بداية القرن الثاني هرب أهلها إلىٰ الصحراء وسكنوا واحاتها في آدرار الحالية، حيث اعتقد مؤرخ الصحراء، إي أم بوفيل، ربما ضربًا بالغيب أو تخمينًا، وعلىٰ كلّ حالٍ في تغييب مصادره، أنهم كوّنوا بعض القبائل البيضانية المعاصرة[٢].

إلاّ أن أهمّ معلم وصلَ إلينا عن هذه الفترة هو فقر الصحراء وسيادة الحياة البدوية المعتمدة علىٰ تربية القطعان فيها. وهذا ما نقله بومبونيوس الميلي (ت. ح. ٤٥م)، الذي تحدّث عن الفاروسيين الذين كانوا يسكنون شمال موريتانيا قرب المحيط الأطلسي وكان مقامهم يمتدّ إلىٰ الجنوب نحو بلاد الأثيوبيين. علّق الميلي باقتضاب أنهم كانوا شعبًا مزدهرًا وثريًا في السابق ولكنهم «اليوم بلا آداب ولا يملكون من الموارد إلا قطعانهم التي يقتاتون عليها»[٣]. وربما كان المعلم الثاني هو امتزاج بربر الصحراء بسودها، فقد اتّفَقَ بليني والميلي علىٰ أن

---

(١) نفسه، ص ٣٨٣، انظر الهوامش.

(2) Bovill, 58.

(3) Pomponius Mela. *Pomponius Mela*. C. P. Fradin, Ed. (Paris: Librairie de Brissot Thivars 1827), 196.

النّيغرتيّين أو زنوج نهر السنغال والنيجر كانوا مجاورين لحدود موريتانيا، الموجودة في أعلىٰ المغرب، أي إنهم وصلوا حتىٰ الوسط المغربي، وكانو يحومون مع الجيتوليين جنوب أرض الفاروسيين الذين كانوا يقطنون في شمال موريتانيا[١]. وربما كانت هذه الإشارة تحيل إلىٰ حرية حركة الزنوج في مجال الصحراء وجنوب جبال الأطلس التي تتوّقف عندها الحدود الرومانية. وربما يفسر هذا مطاردات الغرامانت البربر للأثيوبيين أو الزنوج في كتاب هيرودوتس. وبالنسبة إلىٰ شاعر اليونان الكبير، هوميروس، الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، فإن هؤلاء الأثيوبيين كانوا منقسمين إلىٰ قسمين: قسم غربي وقسم شرقي، وكانوا علىٰ حدود واختلاط مع الليبيين البربر، وهو ما حدا ببعض المؤرخين المعاصرين أن يفهم أن أثيوبيا كانت تُطلق في القرن الأول علىٰ البلدان الواقعة جنوب الصحراء[٢].

❁ ❁ ❁

في القرون التي أعقبت تأسيس دولة رومانية في الشمال الإفريقي وتدمير قرطاجة وخفوت أصوات الحركة المتاجرة مع الصحراء، ظهرت شعوب جديدة ومسميات جديدة. ولكن هذا حدث في غفلة من التاريخ المدوّن. في الألفية السابقة لدخول الإسلام، وحتىٰ بعدها بقرون، ظلّ المجال الصحراوي، بشرقه حيث كان يحوم أبناء عمومة البربر الموريتانيّين من الطوارق، وغربه حيث كان يحوم أبناء عمومتهم من صنهاجة، وفي جنوبه حيث كان يحوم السكان السود، ظل المجال الصحراوي وجودًا مجهولًا من قبل العالم. وكانت حياة هذه الشعوب -التي بدأ المسلمون مع القرون الإسلامية الأولىٰ يعرفون عيِّنات منها في إطار الفتوحات الإسلامية واحتكاك العرب ببقية شعوب العالم- موضع تعميمات كثيرة. وفي سبعينيات القرن التاسع عندما كان المثقفان الموسوعيان، ابن قتيبة (ت ٨٨٩) واليعقوبي (ت ٨٩٧) يكتبان -كلٌّ منهما علىٰ حدة- حول المعروف من الشعوب، فإنهما كانا ينقلان صورة ساذجة عن سكان تلك النواحي بأنهم من أبناء

(1) Pliny The Elder. *The Natural History*, 404.

(2) V. W. Maudimbe. *The Idea of Africa*, Indiana: Indiana Univesity press, 1994, 27.

كوش بن حام بن نوح، وهي الفئة التي دأب معظم الأثنولوجيين العرب والرومان المتنصِّرين علىٰ النظر إليها بدونية؛ إذ مُسخ حام بن نوح أسودَ في لعنة إلهية. ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التّصوُّر الجينيالوجي لسكان الصّحراء كان يُحيل إلىٰ زنجيتِهم. وفي الحقيقة، فقد جمع ابن قُتيبة واليعقوبي في هذه العينة كل سكان جنوب الوطن العربي الحالي في إفريقيا: الزغاوة (الطوارق)، والبربر، والزنج، والسودان، والنوبة، وقازان، والأقباط[1].

ربما عادت ضبابية رؤية الكتَّاب العرب الأوائل إلىٰ أن الصحراء كانت دومًا في طور التشكُّل ولم تتوقّف علىٰ هوية سياسية واجتماعية ثابتة ومحدّدة. فقد كانت في هذه القرون السابقة واللاحقة للميلاد تجمع علىٰ الأقل السودان والبربر وربما الزغاوة الطوارق (الذين سيشير الجغرافي العربي الإدريسي إلىٰ هجماتهم علىٰ قمنورية، شمال موريتانيا، في القرون اللاحقة). ولعل هذه الفترة شهدت نزولًا نشطًا لقبائل جديدة من البربر إلىٰ الصحراء في المئوية الأولىٰ في الشمال. ومع انحسارِ نفوذ البربر لصالح الرومان تراجعت التجارة وربما بدأ الفصل السياسي بين بربر الجنوب وبربر الشمال. إلاّ أن المناوشات مع الرومان لم تنتهِ بهذا الحدث. فقد بدأ البربر في الثورة علىٰ الحكم الروماني بشكل يكاد يكون متتابعًا. وابتداءً من عام ٣٢ ق. م، وربما قبل ذلك، بدأ الرومان في أخذ منحىٰ جدي ضد البربر الذين أثقلوهم بالهجمات. وستستمرّ الحملات التأديبية الرومانية حتىٰ عام ٤٢م عندما طردهم الرومان بشكل نهائي إلىٰ عمق الصحراء في موريتانيا الحالية، كما رأينا من خلال قائد كبير هو بوليونوس الذي أخضع أيضًا بريطانيا.

في هذه الفترة الميلادية ازدهر بربر الشمال في المغرب والجزائر في ظل الممالك المتعاقبة، وطوّروا حضارة متأسسة علىٰ بناء القرىٰ الطينية وصناعة الفخار وزراعة محاصيل القمح والشعير والذرة وتصديرها إلىٰ روما. ولقد نمت

---

(١) أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٩، ص ٢٦.

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، لبنان، ج ١ ص ١٦.

هذه الحضارة المزدوجة إلىٰ حد رأىٰ فيه البعض شبهًا بينها وبين مصر البطليموسية[1]، خصوصًا أن نخبة من بربر الجزائر اندمجت في نمط الحياة والتفكير الروماني بفعل قنوات التمدرس والتمذهب المختلفة التي ربطت مركز الإمبراطورية بمحيطها المغاربي. ولم تغب المساهمات الأدبيّة القيّمة لهؤلاء المندمجين في الحضارة الرومانية، ولعلّ أبرزها في القرن الميلادي الثاني كان كتاب **الاعتذارية**، وكتاب **الانسماخات** المشهورِ لنا بعنوان **الحمار الذّهبي** الذي كتبه أبيوليوس (ح. ١٢٤م - ح. ١٧٠م)، والذي هو أبقىٰ رواية كُتبت باللاتينية ربما أقدم رواية كاملة كُتبت إطلاقًا. وكان أبيوليوس هذا بربريًا عاش في مداوروش الجزائرية، التي يُخبرنا البكري عن اسمها الأمازيغي القروسطي، تاماديت، وقد كتب في **الحمار الذهبي** أدبًا غنيًا عن تحولات ساحر جوّال مُسِخَ إلىٰ حمار بفعل استخدامه العاثر للسحر. ويلاحظُ معظم الدارسين تأثير هذا الكتاب في آداب النهضة وفي شَيْكِسبير[2]. ولعلّ أوْجَ نهضة بربر الجزائر كان القديس أغسطين (٣٥٤م-٤٣٠م)، أحد أكثر الفلاسفة واللاهوتيين المسيحيين تأثيرًا، وكان قد عاش في عنّابة الجزائرية، الواقعة في المجال النوميدي، في القرن الخامس الميلادي وكتبَ كتابيْه الشهيريْن: **مدينة الله**، و**الاعترافات**. وإذا كان العالم قد عرفَ هؤلاء النوميديين من خلال أعلامِهم وأدبائِهم ومن خلال مساهماتِهم في التاريخ الفكري العالمي، فإن علاقاتهم مع الصّحراء أخذت شكلًا آخر، أكثر مُباشرة وعلائقية؛ فأبيوليوس يُخبرُنا أنه «نصف نوميدي ونصف جيوتيلي»، ويُخبِرُنا بعض دارسيه باحتكاكه بتجارة العبيد المُستقدَمين من السودان عبر الصحراء، وخصوصًا وسطها[3]. كما نلاحظ ذلك من إنقاذ إلهة الصحراء، أوزوريس، له أو لبطلِه، من انمساخه في روايته **الحمار الذهبي**.

إلاّ أنه بغض النظر عن هذه التداخلات اللاهوتية والتجارية وربما العوائلية،

---

(1) Brett & Fentress,32-33.

(2) Lucius Apuleius, *The Golden Ass or Metamorphises*, Trans. E. J. Kennedy. London: Penguin Books, 1998.

(3) Keith Bradley, *Apuleius and Antonjne Rome:Historical Essays*, Toronto: University of Toronto, 2012, pp. 164-181.

فإن الجنوب الصحراوي كان منقطِعًا تدريجيًا عن الشمال المغاربي، ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا. في الصحراء اتجه البربر إلىٰ البداوة؛ نظرًا لغياب حياة خصبة أو سلطة مدنية في الغالب، كما أن نمط إنتاجهم اعتمد -بفعل هذا- علىٰ الرعي وتجارة القوافل بدلًا من الزراعة والحرفية. وكان الرومان علىٰ علم بازدهار تجارة القوافل[١]، ولكنهم لم يحاولوا السيطرة عليها، بل كان مبلغ طموحهم هو طرد البربر المهاجمين. وهكذا، فإن صدَّ بربر الجنوب يتقاطع مع تمفصل بربر الشمال في أنماط حياة وآداب مُنقطِعة عن نظرائهم في الجنوب.

إن عزل الرومان للبربر المحاربين إلىٰ الصحراء يعود لحقيقة الهجمات المستمرة التي بدأوا بها ضدهم[٢]، ربما من أجل السلب والنهب؛ حيث إن تاكفاريناس الذي ثار علىٰ الرومان في عام ١٧م كان قاطع طريق. وفي جنوب المجال الروماني كان هنالك الكثيرون من أمثاله، وإن كان بعضهم قد وجد في هذا فرصًا للتكسُّب والاستعباد العسكري. فقد كان كثيرٌ من بربر الجنوب محاربين من الخيالة المهرة، وكانوا يعتمدون علىٰ الحرب في تحقيق المداخيل. وكانت الممالك في الشمال، قرطاجة وروما، تعتمدهم مرتزقةً في حروبها في المنطقة[٣]، بحيث إن سترابو لاحظ أن ملوكهم كانوا يملكون ١٠٠٠٠٠ مهر يعدُّونها للحرب[٤]. ربما واصل هؤلاء البربر هجماتهم علىٰ المقاطعة الرومانية، موريتانيا المغربية، بعد أن ضمّها الرومان، وبعد أن تراجعت حظوظ الارتزاق بفعل هذا الضم. وهكذا عانىٰ الرومان في سبيل إبعاد البربر إلىٰ الصحراء؛ لأنهم أنهكوهم بالقلاقل. وقد قام البربر في ليبيا، وربما في موريتانيا، من الجيتوليين بالمشاركة في بعض الثورات ضد الرومان[٥].

كان مجال الصحراء يمتدُّ خارج السيطرة الرومانية من وسط المغرب والجزائر الحاليتين إلىٰ عمق موريتانيا. والشيء القليل الذي نعرفه عن هذه المساحات

---

(1) Mercer, 70.

(٢) العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص ١١٢.

(3) Brett & Fentress, 34; Hoffmann, 13-19

(4) Brett & Fentress, 34.

(٥) نفسه، ص ٤٦-٤٧.

الشاسعة في تلك الفترة، هو الهجمات علىٰ الشمال أو الهجرات، وربما الانهزامات، إلىٰ الجنوب. وبالنسبة إلىٰ التنظيم الاجتماعي فربما كانت كثير من المجتمعات محاربة ومتدينة، وربما كانت أمومية أكثر من كونها ذكورية كما تدلُّ علىٰ ذلك الآثار المقدِّسة لتين حينان، التي كانت ملكة لمجموعات من البربر في القرن الرابع الميلادي[1]. ولقد هاجر أحفاد هذه الملِكة من جنوب المغرب إلىٰ الصحراء، حيث سيعرفون بالطوارق. وإذا عمّمنا تأليه أوزيريس، الذي نعرف من أبيوليوس أنّه كان مألوفًا في المجال الجزائري، فإننا نصلُ إلىٰ صورة مشابهة عن تأليه الأنثىٰ في المجال الصحراوي.

في الصحراء، أخذ البربر عاداتهم الحربية والثقافية معهم وتغلغلوا جنوبًا وواصلوا هجماتهم علىٰ السكان في القرن الثالث قبل الميلاد. ويبدو أنهم -كما تقترحُ أبحاث مَنسون- هاجمو مرارًا الأهالي المقيمين منذ القرون في تيشيت وولاتة. وسجّلوا هجماتهم في هذه المنطقة بحروف التيفيناغ التي ازدهرت في هذه الفترة، وسُجّلتْ بها حوادث سياسية واجتماعية في تونس وفي الجزائر والمغرب[2]. ويسجل التاريخ التنقيبي هذه الفترة باعتبارها فترة النهاية لحضارة تيشيت-ولاتة التي ازدهرت قرونًا. غير أن تدفّقهم إلىٰ الجنوب كان بطيئًا وربما استغرق قرونًا، ولكننا نعرف أنهم وصلوا إلىٰ جنوب الصحراء في أوداغست في شرق جنوب تيشيت في القرن العاشر الميلادي، بعد أن ازدادوا بهجرات بربرية زناتية، أخرىٰ من الشمال.

ومن الصعب علينا معرفة طبيعة وصول البربر إلىٰ الجنوب الصحراوي قبل الإسلام، وهل تعلّق في أصله بتوسُّع وغزو أم بترحال وانتجاع طبيعي أم لا، ولكننا نعرف أن هذه الأنماط تداخلت لاحقًا ونعرف أنهم مارسوا التجارة ربما حتىٰ قبل مقدم الجمل. ويبدو أنهم استخدموا القوافل المعتمدة علىٰ الخيل في التواصل بين الشمال والجنوب. ولكي تؤدِّي الخيل هذه المهمة الشاقة عليها

(1) P. Salma. The Sahara in Classic antiquity. Unesco. International Scientific Committee for the Drafting of a General History of Africa. Ancient Civilizations of Africa. UNESCCO, 1981, 520. ص، ٥٢١

(2) Brett & Fentress, 37-40.

بالطبيعة، فإن التجار الشماليين اضطرّوا إلىٰ التوقف مرارًا للاستراحة. وربما في تلك النقاط الاستجمامية تمّ تأسيس أول نواة للمدن التجارية التاريخية. وربما تأسّس في هذا الإطار أصل مدينة أوداغست التي ربطوها في بعض القرون بعد الميلاد بالشمال من خلال القوافل الخيولية الطويلة[١]. وربما ساهمت قوافلهم ومحطاتهم هذه في إخراج المجتمعات السوداء في منطقة اظهر تيشيت وولاتة وارتمائها في التجمعات القوافلية، ثمّ امتزاجها مع الحركة الاجتماعية المتعلِّقة بالقوافل كما يفترض بعض المؤرخين الحفريين[٢].

❁ ❁ ❁

ربما في هذه الفترة قبيل وبعد الميلاد بدأ النظام الاجتماعي القبلي لدىٰ البربر يأخذ بعدًا قياديًا مختلفًا. علىٰ الأقل يبدو هذا من خلال النظرة الرومانية للبربر، وهي حتمًا نظرة لا تخلو من الرغائبية أو من الاختزال. وما نعرفه من هذه المصادر، وليس حتّىٰ بوضوح شافٍ، هو أنه في هذه الفترة بدأت قبائل الشمال، التي بايعت منها أربعمائة وثلاثة وستون قبيلة روما حسب ما ذكره بليني الأكبر، في تطوير نظام يتحكَّمُ فيه الزعماء القبليون في قبائلهم، ويمركزون السلطة في شخص رئيس القبيلة الذي زادت سلطاته ورئاسته بشكل ملحوظ. أما في الجنوب فيبدو -وخصوصًا بالاعتماد علىٰ ما نعرفه لاحقًا- أن النظام القبلي كان أكثر أفقية، وكان يتجه إلىٰ نوع من التنظيم القبلي الذي يعتمد الزعامة الجماعية والمشتركة. ولكن في منطقة اظهر ولاتة يفترض الحفري مَنْسون أن ديكتاتورية قبلية قد وطّدت نفسها وأبعدت التشرذم وحوّلت القرىٰ من قرىٰ متحاربة إلىٰ قرىٰ سلمية[٣]. إلا أن نمط القبلية الديمقراطية، المبني علىٰ التجمعات التي تتمتّع نخبها وأشرافها وسائر صميم أعضائها، كنقيض لملحقيها وعبيدها، بحقِّ المساواة، هو نموذج شائع لدىٰ البدو الرحل الموريتانيين، والبدو عمومًا. وقد

(1) Pazzanita, *Historical*, 36.

(2) Patrick J. Munson, "Archaeology and the Prehistoric Origins of the Ghana Empire," *The Journal of African History*, Vol. 21, No. 4(1980), pp. 457-466; Ian Blanchard, *Mining, Metallurgy in the Middle Ages. Vol: 1: Asiatic Supermacy*. Stutgart: Steiner, 2001, p. 123.

(٣) نفسه.

ذهب الكثيرون إلىٰ القول بنوع من الاستدامة ترىٰ أن هذا النموذج لا يتقدَّمُ باتجاه تمركز السلطات في يد مركزية واحدة ولا تتحوّل فيه القبيلة إلىٰ مدينة كما في النموذج الهيليني[١]، وإن كان هذا يتناسىٰ التطوّر والتحوّلات التي تحدث في هذا الأنموذج علىٰ المدىٰ البعيد في اتجاه سيطرة العائلات الكبيرة واعتمادها علىٰ احتكار الجاه والثروة[٢]. وبطبيعة الحال، فإن هذه البنىٰ المتنافرة تعطينا فكرة باهتة عن الحياة المجتمعية القديمة، ولكنها تعطينا صورة أفضل عن كيف تمّ تصوير هذه الحياة قديمًا وحديثًا.

تكوّنت القبائل البدوية في الشمال الصحراوي أساسًا من قبائل صنهاجة، وهم قوم رُحل تشعّبوا في تجمعات قبلية كثيرة. وفي بداية قدومهم إلىٰ الصحراء كان لهم دينٌ يختلف عن أديان الحضارات الكبيرة التي كانت تعيش في الشمال، والتي كانت تعبد آلهة متعدّدة تتصدّرُها آلهة الحرب أو الخصوبة أو الأمطار أو الرعي، كلٌّ بحسب سيادة النمط الإنتاجىٰ. بعكس هؤلاء يبدو دين بربر الصحراء غامضًا بعض الشيء، وإن كانت القبور الموجودة في الشمال تُعبِّر عن حالة من عبادة، أو علىٰ الأقل تقديس، الأموات. وهذه العادة لاحظها غابرييل كامبس (١٩٢٧-٢٠٠٢)، وقديمًا أشار إليها بومبيوس ميلا (الميلي)، عندما نقل أن الجيتوليين -وهم بربر ليبيا- كانوا لا يعترفون به من الآلهة إلا أرواح الموتىٰ، وأنهم كان يحلفون بهم ويستشيرونهم كما يُستشار الكهنة، وينامون في قبورهم ثم يعتبرون ما رأَوْه في الأحلام نوعًا من الإجابة علىٰ تساؤلاتهم[٣]. كما كانوا يدفنون الحلي والجواهر معهم[٤]. وهؤلاء البربر الجيتوليون كانوا الأقرباء القريبين للصنهاجيين. ويخمِّن بعض الدارسين أن قبيلة جدالة (أكَدالة) الصنهاجية ربما هي

---

(1) Brett & Fentress, 34.

(٢) محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢، ص ٤٨.

(3) Frank E. Romer., Ed. *Pomponius Mela's Description of the World Par Pomponius Mela*. Michigan: University of Michigan Press, 1998, p. 48.

(4) Lucas, 160

امتداد لهم[١]، وهو قريب مما تصوّره الفلكلور الموريتاني، متمثلًا في هذه الحالة في رواية إسماعيل ولد الشيخ سيديا في صدر القرن العشرين، عندما تحدّث عن أصول بافورية في بعض الجداليين في البراكنة والترارزة[٢].

نعتقد أن الدين الأول لبربر المجال الموريتاني وجواره كان هذا الدين الأرواحي، فقد دلّت الاستكشافات علىٰ وجود بعض القبور الآثارية التي تعود لعهد البربر في الصحراء الوسطىٰ، رغم أن بعضها يعود إلىٰ الفترة الأقدم ما بين ٦٥٠٠ ق. م إلىٰ ٥٠٠ ق.م[٣]، وهو مؤشِّرٌ علىٰ قِدم هذا الدين وتشعُّبه. وفي شمال موريتانيا والصحراء الغربية وُجدت آثار لقبور وأضرحة تنقل لنا فكرة عن بعض الطقوس الدينية، حيث احتوت المدافن مختلف أنواع زينة الجسد من الحلي والقلائد. وتعدّىٰ تحضير قبور هؤلاء الأموات أجسادهم إلىٰ أضرحتِهم؛ ففي كَلتة ازمور نُقِّبت قبور واسعة ومُحَوّطة بجدران تصل إلىٰ مترين مشكّلةً غرفة مثلثة غير مسقّفة. وتدلُّ الآثار علىٰ تراتبية وخصوصية في دفن بعض العظماء، فوُجد في بعضها ضريح مهيب وسط المقبرة المحاطة بالتلال. وفي بعضها وُجدت الجثة مدفونة في وضعية القرفصاء وبقربها أوانٍ من حجر الكلس والصحون المجرشية. وفي الرأس الأبيض عُثِرَ علىٰ مومياء مدفونة مع الأواني الفخارية وقواقع البحر، كما نُقِّبَ عن قبور لجثث أحيطت بحالات طقوسية شبيهة في ازويرات. أما في آدرار فإن قبور البافور تنوّعت -كما لاحظ ذلك مودا- ما بين مدافن تقوقعت فيها الأجساد في وضعية واحدة ثابتة إلىٰ أضرحة كبيرة دائرية مسيّجة بالصخر، فيما دلّت الأضرحة الأحدث في المنطقة نفسها علىٰ تطوّر طقوس الدفن ولوحِظَ تنميق في تحويطها وتزيينها بالصخور مع استحضار إرفاق الجثث بالمنحوتات الخشبية وبالملاعق الجلدية. ويعتقد أنثروبولوجيون، علىٰ غرار ما ذهب إليه كامبس في المغرب، أن هذه العادات قد أُسلِمت بعد دخول الإسلام للصحراء، حيث ما زال المحار يستخدم في الدفن إضافة إلىٰ تلة حجرية

---

(١) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٣٢-٣٣.

(2) Lucas, 165.

(3) Vernet, La Mauritanie, 31, 33.

عند رأس المدفون، (مع إضافة توجيه الميت إلىٰ جهة الكعبة). وقد لاحظ دانجلزر عادات كهذه لدىٰ مراقبته لقبور قبائل اركِيبات المنطقة[١].

وإضافة إلىٰ عبادة الأرواح، فإن باحثين غربيين قد اقترحوا إيضاحات أخرىٰ حول هذا الدين وخرجوا باستنتاجات مبنية علىٰ التحليل الألسني بأن سكان الصحراء في هذه الفترة عبدوا الإلهة نانا، التي اعتبروها متجسدة في أشجار الصمغ والسنط، وآمنوا بنوع من الطوطمية المتعلقة بحلول الإلهة الأم في الأشجار الصحراوية. وقد حلّل هؤلاء أن عادات تلثم الطوارق ربما كانت نابعة من خوف واستحياء من الإلهة الأم؛ لذا كان اللثام الصحرواي طقسًا دينيًا أكثر مما كان عادة بيئية[٢]. وربما بقيَت ترسُّباتٌ من هذه الطوطمية ملموسة حتىٰ بعد الإسلام؛ ففي القرن الثامن عشر نقل عالم نبات فرنسي -هو بيير بوميه- أن البيضان يُقدِّسون أشجار الصمغ العربي في الصحراء[٣].

علىٰ أن الوثنية لم تحتكر كل دين الصحراء، فقد كان لليهودية حضور في المنطقة إذ اعتنقتها قبائل بربرية يُعتقد أن بعضًا منها تدفّق إلىٰ صحراء موريتانيا، بعد إخفاق ثورة برقة الليبية ضد الرومان، وسكن في الواحات الآدرارية[٤]، وربما كانت الهجرات اليهودية للصحراء وجنوبها متكرِّرة وعلىٰ مراحل كان آخرها في القرن الخامس عشر عندما هرب بعضهم من الاضطهاد الذي مورس عليهم في توات في الجزائر في إطار الأحداث السياسية المشحونة في ذلك القرن في تلك المنطقة. ولقد تمّ امتصاصهم بشكل مطلق في مجتمع البربر أو السودان، حيث اعتقدت روايات شعبية أن بعضهم أدّىٰ أدوارًا وظيفية في المجتمات البربرية

---

(1) Mercer, 67-68; Modat, 373-74.

(2) H. R. Palmer, "The Tuareg Veil". *The Geographical Journal*, Vol. 68, No. 5(Nov., 1926), pp. 412-418

(3) Pierre Pomet, *Histoire générale des drogues simples et composés.* Paris: Etienne Ganeau et Louise Etienne Gannea fils, 1735, Tome, 2,

(٤) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٢٦؛

Bovill, 58.

المُستقرة أو الفُلانية المحاربة والمترحلة[١]، وسنرىٰ أن الطيف اليهودي سيظهر مرارًا في موريتانيا، وستنسب مجموعات لأصول يهودية.

❁ ❁ ❁

اعتقد مؤرخ لشعوب البربر في المغرب الشمالي -هو أرنست مرسييه- أن البربر الصنهاجيين لم يلعبوا أي دور نشط في التاريخ[٢]، غير أن عكس الأمر هو ما حدث في مجالي موريتانيا وربما مالي، حيث بدأوا في تحريك التاريخ. كانوا تجمعًا متعاضدًا، ومع استقرارهم في الشمال، الذي بدأ يتصحر بشكل متسارع، تحوّلوا إلىٰ بدو رحل يعتمدون علىٰ الرعي والتنقل خلف الكلأ. وبعكس ما يتصوّره الكثيرون عن البداوة، فإنها ليست نمط حياة سابقًا للمدانة أو التقري دومًا، بل هي تفرّع منها. وتعتبر النظريات أن البداوة الرعوية هي قطاع من الحضارة المدنية، وأن البدو تفرّعوا من مجتمع قروي مقيم[٣]. وفي الصحراء أدّىٰ هذا التفرع إلىٰ تغيُّرات هائلة في عموم الحياة في الصحراء، فأعطي دفعًا للحياة التجارية وللبداوة التي ستتعزّز علاوة علىٰ هذا باستقدام الجمل[٤]. وسيبقىٰ في بعض الذاكرة الجماعية أن البربر القدماء كانوا ينحدرون إلىٰ الجنوب إلىٰ وادان الحالية مقايضين ومتاجرين مع السود -الذين كانوا يسمونهم «گنون»- بالعبيد والملح والذهب والفضة[٥].

---

(1) Palmer, H. R. "M. Delafosse's account of the Fulani," *Journal of the Royal African Society*, 13, 1913-1914, pp. 195-203.

(2) Ernest Mercier. Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française. Vol,1, Paris: Ernest Leroux, 1830, 337

(٣) تعتبر نظريات البداوة أن البداوة الرعوية هي قطاع من الحضارة المدنية، وأن البدو تفرعوا من مجتمع قروي مقيم.

Emanuel Marx. The political Economy of Middle Eastern and North African Pastoral Nomads. In Dawn Chatty (Ed.) Nomadic societies in the Middle East and North Africa: entering the 21st century, Leiden: Brill, 2006, 78-98.

Jacques Cauvin and Trevor Watkins, *The Birth of the Gods and the Origins of Agriculture*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000, 188-192

(4) Christopher Ehert. "Sudanic Civilization," Michael Adas, ed. *Agricultural and pastoral societies in ancient and classical history*. Philadelphia Temple University Press, 224-275.

(5) Lucas, 160.

في القرون الطويلة لما قبل وما بعد الميلاد نزل الصنهاجيون في الصحراء وخصوصًا في الغرب ثم إلىٰ جنوب الغرب في الترارزة الحالية وعلىٰ الخط الشرقي إلىٰ نواحي تمبكتو، بينما بقيَ أقرباؤهم من التجمع القبلي نفسه في الشمال الممتد من السوس المغربية إلىٰ الصحراء، غير أن نمط حياتهم لم يكن البداوة المطلقة التي ستتّسِمُ بها حياتهم في مجال موريتانيا. أما في بقية المغرب الكبير فقد انتشر أقرباؤهم من زناتة الذين استقرّوا بتونس وليبيا والمغرب الذي توطّدت أيضًا فيه قبيلة مصمودة. وكان انتشار صنهاجة الصحراء في غالبه، وخصوصًا كما خلّدته السرديات العربية والصحراوية، انتشارَ ثلاث قبائل رئيسة: لمتونة، جدالة، ومسوفة. وبقيت قبيلة لمطة -القريبة جدًا والمحتكة مع هؤلاء- نازلة في شمالِ الصحراء ووادي درعة ونواحيه. وربما في هذه الفترة بدأت هذه القبائل في الابتعاد عن بقية الأصول البربرية القريبة من الصنهاجيين كالطوراق، الذين كانوا يشتركون معهم في الانتماء الأمومي نفسه[1]، وفي الابتعاد عن البربر الذين سكنوا في ليبيا والجزائر ومالي والمغرب حيث سكنت قبيلة مكناسة الصنهاجية.

عُرف الصنهاجيون منذ أوائل تدوين ثقافتهم بـ«**الملثّمين**»، بسبب عادة تلثيم الوجه، عدا العينيْن، التي طبَعت ميسم رجالِهم وكانت هويةً وشِعارًا لهم، وهي العادة نفسها التي ما زالت مستمرة لدىٰ بني عمومتهم (الطوارق). أما هم فسيتخلّون علىٰ ألثمتهم بعد قرون طويلة من التناسل والتثاقف مع الوافدين العرب من الشرق. ولكن هذا لن يبدأ، وفقط نسبيًا، قبل الهجرات الحسانية وتغلغلها في البلاد فيما بعد القرن الخامس عشر. فيما قبل ذلك كانت قبائل الملثّمين الصنهاجيين تتوزّع في الصحراء بانسياب. فنزلت قبيلة مسوفة في وادي درعة جنوب المغرب حتّىٰ منطقة الحوض في الجنوب الشرقي الموريتاني وفي تغازة في الشمال المالي، ونزلت قبيلة لمتونة القوية في الوسط والجنوب، في آدرار وتگانت، بينما نزلت جدالة في الغرب قرب المحيط غربًا إلىٰ تگانت شرقًا، وفي الصحراء الغربية اشتهر كل هؤلاء بـ«**أنبية**» التي أشار إليها اليعقوبي والفزاري

(1) Norris, *Saharan Myth and Saga*, Oxford: Clarendon Press, 1972, p, 28-30.

ولا يعرف الآن علىٰ وجه الدقة هل كان هذا اسمًا لقبيلة ثالثة أم أنه مجرد اسم لتجمع قبلي يضم القبائل الصنهاجية.

❁ ❁ ❁

منذ حوالي منتصف المئوية الأولىٰ قبل الميلاد إلىٰ القرون الأولىٰ كان نمط التنقُّل علىٰ العربات التي تجرّها الثيران قد اختفىٰ تمامًا من الجداريات الصحراوية، كما تناقصَ كثيرًا نمطُ الاعتماد علىٰ الخيل. وفي المقابل ظهرَ بقوّة نمط الاعتماد علىٰ اكتشاف ثوري في المنطقة: الجمل، الذي أصبَحَ سلاحَ البداوة الرعوية ووسيلتها التي أصبحت بدورِها محدِّدًا أساسيًا لنوعية الحياة بعد التصحُّر الكبير[١].

عرف الصحراويون الأوائل الجمل منذ ١٢٠٠٠ عام علىٰ الأقل في شكل فصائل مختلفة عن فصيلته الحالية، كما تدلّ علىٰ ذلك الآثار في منطقة الداخلة الواقعة الآن في الصحراء الغربية. غير أن تلك الأنواع الأولىٰ من الإبل انقرضت واضطر البربر الصحراويون إلىٰ استيراد الجمل ذي السنام الواحد، الأصلب والأقدر علىٰ التكيّف مع أوضاع الصحراء[٢]. وقد استُقدِمَ هذا الجمل الحديث من المشرق إما عن طريق الشام أو مصر والنوبة، وهو ما أصبح ممكنًا بعد استئناسه في الألفية الثالثة قبل الميلاد في الجزيرة العربية. إلاّ أنه بدأ مسيرته مدنيًا، ولم يُشارك في الحياة البدوية إلاّ بعد قرون عديدة. ويُعتقَدُ أن ذلك كان في أواخر الألفية الثانية[٣]. فمع انتشار التصحر في منطقة الشام في العصر

---

(1) D. Jcaques-Meunié, *Le Maroc saharien: des origines à 1670.* Librairie Klincksieck, 1982, p. 172.

Brett & Fentress, 34.

Richard Bulliet. The Camel and the wheel. Columbia: Columbia University Press, 1975, 57.

(2) Marqe De Villiers and Sheila Hirtle, 282.

D. Jaques-Meunié, *Le Maroc saharien: des origines à 1670,* Librairie Klincksieck, 1982, p. 163-164.

(3) Richard Bulliet. The Camel and the Wheel, 57-59

Abdel Wedoud Ould Cheikh, "Herders, Traders and clerics: the impact of trade, religion and warfare on the evolution of Moorish society. Herders, Warriors and Traders" in in John G. Galaty and Pierre Bonte, *Herders, Warriors and Traders* (Boulder; Colo., 1991), p. 200.

النيوليثي، بدأت ضرورة هذا الحيوان تظهر واستعان به باطراد سكانُ الجزيرة العربية، وانتقلَ عبر التثاقف والتخاطر في الألفية الأخيرة قبل الميلاد إلىٰ شمال إفريقيا وإلىٰ النوبة في شرقها. ولكن قيمته الثورية لن تظهر أولًا إلا في مناطق هامشية علىٰ هاتين المنطقتين: في الشرق بالنسبة إلىٰ النيل، عند البيجاويين في القرن الإفريقي، وفي الجنوب بالنسبة إلىٰ شمال إفريقيا، في موريتانيا تحديدًا[١].

في الصحراء بدأ الجمل ما وُصفَ بأنه «ثورة الصحراء»[٢]. يصبر هذا الحيوان أسابيع علىٰ الجوع والعطش ويقطع مسافة ستين كيلومترًا في اليوم ويحمل مائة وخمسين كليوغرامًا علىٰ ظهره. وبفعل هذه الطاقة الكبيرة أمكن له أن يبدأ الثورة الاجتماعية ويحسمَ خيار البداوة بشكل نهائي. إن البداوة الرعوية كما رأينا تبدأ أولًا في خضم المجتمع القروي المستقر، ومن المحتمل جدًا أن يكون نشوء البداوة في المجال الموريتاني تطوّر بشكل شبيه لبداوة الشام، فتكون قد مرّت بحالة من التنقل الموسمي بحثًا عن الكلأ، بشكل لا يسمىٰ بداوة وإنما يتعلق بنوع من الظعن الموسمي، أو بجمع الثمار. وواضح أن هذا النموذج من الترحال الموسمي قد استمرّ لفترة في تيشيت-ولاتة، كما رأينا. ولكن فقط مع استيراد الجمل، الذي سهّل حمل الممتلكات كافة والهجرة بها بعيدًا إلىٰ مناطق موائمة، أمكن العيش في نموذج بداوة مترحلة دائمًا. والفرق الوحيد هو أنه في المجتمعات البدوية الأولىٰ في الشام نجمت البداوة من سيادة الصيد علىٰ جمع الثمار كنمط اقتصادي، أما في غرب الصحراء فقد جعل الجمل -بفعل قدرته علىٰ طيِّ المسافات- القدرةَ علىٰ اتِّباع الأمطار والمسارح سهلةً والبداوة ممكنةً، وهكذا حرّر المجتمعات من الظعن: التنقل الثنائي والبطيء بين منطقتين غير متباعدتين (transhumance)، إلىٰ خيار البداوة المطلقة الحرة التي لا يحدها ضيق المكان (pastoralism).

بيد أن الجمل لم يكن مجرّد وسيلة لتطوير التنقل والتجارة، بل كان -علاوة

(1) Christopher Ehret. The civilizations of Africa: a history to 1800. Virginia: The University Press of Virginia, 2002, 226.

(2) Marqe De Villiers and Sheila Hirtle, 282.

أنّه ثقافة- سلاحًا فتاكًا ووسيلة تفوّق عسكرية. لم تكن امتيازاته تكمن فقط في أنه أقوىٰ من الحصان بل في قدرته، علاوةً علىٰ ذلك، علىٰ السلب واستياق متاع المهزوم. كان جنة الخاطف، وكما قال عنه لهوتي فإنه «لم يكن مطية المقاتل، بل كان مطية قاطع الطريق»[١]. وربما كان هذا السلاح طامة علىٰ السكان المقيمين جنوب الصحراء عمومًا، حيث ربما ساهم في دحرهم وأصبح سلاحًا ضروريًا وليس مجرّد مساعدٍ للخيل كما كان في المغرب. وفي هذه الفترة نفسها مع مطلع القرن الميلادي التي بدأ فيها الجمل يظهر في الرسومات الحائطية في وادي النيل وبحيرة تشاد، فإن البربر استخدموه في الهجمات الخاطفة علىٰ السود في الجنوب وفي تعبيدهم ونهب متاعهم وحمله علىٰ ظهور الإبل[٢]. لقد مأسس هذا المخلوق السلب والنهب، ولقد أعطت مساهمته في نقل المتاع فرصة للغزوات لتصبح نمطًا اقتصاديًا سيظلُّ مهمًا حتىٰ القرن العشرين.

❁ ❁ ❁

إذن مع الجمل، وابتداءً من القرن الميلادي الأول، ظهر أيضًا نمط اقتصادي جديد معتمد علىٰ التنقل وعلىٰ التبادل التجاري. هذا النمط هو الترحال السريع نسبيًا عبر المسافات البعيدة بالاعتماد علىٰ الجمل أو ما يسميه كريستوفر إيهرت بـ«**بداوة الإبل**»[٣]. ولكن اتِّباع العشب لم يكن أمرًا كافيًا، وبالكاد جعل هنالك فارقًا بين المجاعة والحياة، وكان لا بدّ للبداوة من الاعتماد علىٰ إنتاجية تحلّ محلّ غياب الزراعة والحِرَفية أو جمع الثمار أو غيرها من أنماط الحياة. وهكذا دخل الجمل تاريخ التجارة. بل ويخمِّن البعض أن أولىٰ الأنشطة التجارية في المنطقة لم تبدأ إلاّ مع دخول الجمل، وبدأت تتطوّر حثيثًا في الفترة ما بين ١٠٠٠ ق.م و٣٠٠م. ومهما يكن من أمر، فقد اكتشف البدو الصحراويون المقيمون بين السودان والمغرب إمكانية العمل وسطاء وناقلين وحُماة بين

(1) Mauny, *Trans-Saharan Contact*, 291.

(٢) نفسه.

(3) Christopher Ehret, *The Civilizations of Africa: A History to 1800,* Virginia: The University Press of Virginia, 2002, 264.

الحواضر، واكتشفوا قدرتهم علىٰ تحفيز التواصل والتبادل التجاري بين المدن والقرىٰ المتباعدة. وهكذا في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد بدأت الثقافة التجارية تزدهر بشكل واضح في منطقة السودان الإفريقي جنوب موريتانيا. ولقد تعمّقَ هذا بفعل عصر الحديد، الذي ربما استقدمه بربر الصحراء الذين -كما رأينا سابقًا- طوّروا عصرًا نحاسيًا وبرونزيًا واضحًا، وكان ذلك دافعًا لقدومهم وتوسُّعهم في البراري الصحراوية بفعل العربات التي تجرُّها الخيول. ولقد تمّ إدخال الحديد إلىٰ الحضارة السوداء بتيشيت، حيث عمل الحدّادون علىٰ صهره. وفي الفترة نفسها تنسب الأساطير للبربر بناء قرية تجارية هي كومبي صالح، التي ستصبح عاصمة إمبراطورية غانا الشهيرة[١].

في هذه الفترة، في الجنوب الأبعد، بدأت التجارة ذات النطاق الواسع تمتدُّ إلىٰ حوض النيجر ومالي، وقام ما يُشبِهُ تقسيم عمل بين القبائل؛ مما حفّزَ أنظمة المقايضة والتبادل التجاري. ففي هذا الحوض بدأ أسلاف قبائل البوزو في التخصص في الصيد وتجارة السمك بينما اتّجَه أسلاف قبائل الماركا إلىٰ الزراعة. وطبعًا ربما سبقت التوجهات الإنتاحيّة علىٰ الهويات القبلية، بل وأنتَجتْها. وما يهمُّنا هنا هو أن هذه التمايزات جعلت التجارة تزدهر في إطار التحاق السكان بنقاط للتبادل التجاري وسكنهم بقربها وتأسيسهم لتجمعات مدنية حولها. فإضافة إلىٰ تأسيس المدائن التجارية الموريتانية ككمبي صالح وأوداغست الذي يتحدّث عنه الفلكلور وتُخمنه الحفريات في حوالي القرن الثاني ق.م، فقد تأسّست أيضًا في الفترة نفسها مدينة جني في مالي الحالية، غير بعيد من المجال الموريتاني. ولا يُمكِنُنا إلاّ التفكير في السياق العام لتأسيس هذه المدينة، حيث تراجعت الساكنة السوداء، وحيث كانت تصل جمال البربر في الشمال، وحيث نهضت وسائل التبادل بين السودان والصحراء. وقد أصبحت جني تجمعًا تجاريًا مهمًا وتأسّست عدّة مدن أو قُرىٰ تجارية مثلها في المنطقة[٢]. ولقد أدّت رغبة

---

(١) انظر مثلًا نقل بعض المؤرخين للأسطورة باعتبارها حقيقة:

الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلىٰ بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩، ص ٢٧.

(2) Ehret, The civilizations of Africa, 228; Ian Blanchard, 123.

المجتمعات التجارية في الجنوب إلىٰ التبادل مع الشمال، وهو التبادل الذي تمّ حتمًا بفعل مبادرات بربر الصحراء والممالك السّائدة عليهم من فينيقيين قرطاجيين ورومان وعرب؛ إذ كانوا هم العابرين إلىٰ التجارة أكثَرَ مما كانوا مقصدَها. وكدليل علىٰ هذا التشّعب التجاري، فقد وجدت قطع نقدية بونية في المغرب وموريتانيا، وهي -كما نعلم- قطع سُكّت في شمال إفريقيا وكانت وسيلة لتغلغل التجارة القرطاجية والرومانية في الصحراء[١].

في القرن الثالث الميلادي، ومع اعتماد الجمل، بدأت أوداغست في النشوء، وتم استبدال الخيل فيها بالجمل. وستُشاهد آثار الجمل لاحقًا في الجنوب القصي في السنغال ومالي، كدليل علىٰ امتداد تجارة البربر باتجاه الجنوب[٢]. ولقد بدأ هذا الاستقرار التجاري يظهر في الفترة نفسها في جنوب موريتانيا وشمال مالي. وفي القرون اللاحقة بدأت تتأسس نواة أول مملكة إفريقية مسجلة: مملكة غانا التي أقامها السونينكي الأوائل، الذين كانوا يعملون في الزراعة والذين بدأوا في المتاجرة مع البربر القادمين من الشمال ثم بدأوا في الدخول في مواجهات معهم ستحتدِمُ في العصور القادمة[٣].

❁ ❁ ❁

قبل ظهور الإسلام أصبح الصنهاجيون سادة شمال الصحراء ووسطها، وربما وصل تغلغلهم، أو علىٰ الأقلّ استطلاعهم، إلىٰ منطقة السودان. غير أنه لا يمكننا الجزم بتوطُّدِهم وإن كنا نعرف من التواريخ أن نفوذ البربر في تخوم السودان، سواء كانوا صنهاجين أو زناتيين وسواء كانوا غزاةً أم تجارًا، قد حصل بالفعل بُعيد دخول الإسلام. أما الأساطير فتشير إلىٰ أصول البربر أو حتىٰ العرب وأدوارِهم في تأسيس مملكة غانا، وتُشير إلىٰ أصل سيادي لهم في قبائل التكرور

(1) Kevin Shillington, 563-564.

Patricia McKissack and Fredrick McKissack, *The Royal Kingdoms of Ghana, Mali, and Songhay*, Clive, IA: Perfection Learning, 2010, 10-11.

(2) R. Blench and Kevin C. MacDonald. *The Origins and Development of African Livestock: Archaeology, Genetics, Linguistics, and Ethnography*. Routledge: ULC Press, 2000, 141-142.

(3) McKissack and McKissack, 10-11.

التي لن تظهر بصفتها الأوضَح إلاّ بعد قرن من دخول الإسلام. وبطبيعة الحال، فربما لم تكن هذه السرديات غير روايات لاحقة. ولكن بعض الدارسين أخذها علىٰ محمل الجد، وقد تمّت الإحالة إلىٰ الأصول البربرية لممالك السودان في أعمال الأرواني ومحمد كعت وعبد الرحمن السعدي الذين تحدّثوا عن سيادة أمازيغ القرن الأول الميلادي علىٰ المزارعين السود في السودان، ربما من خلال سيطرتهم علىٰ الأرض. وتشير بعض هذه الأساطير إلىٰ أحد هؤلاء الملوك باسم كيمع، الذي شهد عهده بداية استثمار الذهب والمتاجرة به، كما يدلُّ علىٰ ذلك اسمه الذي يعني «**ملك الذهب**». حسب الأسطورة، وحسب استخداماتِها في بعض الكتابات التأريخية، فإن كيمع هذا حكم ووَرّثَ الحكم لأولاده الذين كان آخرهم الملك كنسعي الذي كان معاصرًا للبعثة النبوية في المشرق[1].

ومهما يكن، فإن مملكة غانا الوليدة جنوب الصحراء سرعان ما تطوّرت بحيث إن الصنهاجيين والزناتيين في جوارها سيصبحون تابعين لها في القرن الحادي عشر. غير أن هذا لم يمنع البربر الصحراويين من السفر إلىٰ الجنوب، حيث نزلوا قرب السنغال في القرون الطويلة اللاحقة. ويعتقد أنهم كانوا مؤثِّرين هنالك بحيث سُميّ نهر السنغال نسبة إلىٰ صنهاجة، قبل أن تلوكه الألسن لاحقًا إلىٰ «السنغال». وتقول لنا الحفريات إن التفاعل بين الشمال والجنوب قد تطوّر علىٰ مرِّ العصور. ويبدو أن السونينكي المهاجرين من حوض نهر النيجر إلىٰ الشمال السوداني بدأوا في استخدام الحديد الذي كان مزدهرًا عند البربر أيام اعتمادهم علىٰ العربات ونقلها إلىٰ الجنوب، واكتشفوا استخدامات أكثر نجاعة واستدامة للحديد من جيرانهم الشماليين. وابتداءً من القرن الرابع علىٰ الأقل بدأوا في صناعة الرماح والسهام ذات النصال الحديدية، إضافة إلىٰ الخناجر والفؤوس والمجارف للزراعة[2]. ومع تكثّف نزول البربر إلىٰ الجنوب زادت فرص احتكاكهم مع سكان الجنوب من القبائل السودانية. باختصار، كانت حاجة المجتمعين لبعضهما تترجم

(١) الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا في ما وراء الصحراء، ص ٢٣-٢٥.

(٢) انظر الفصل عن مملكة غانا.

في النشاط التجاري بينهما[1]. وهو نشاط خصّب التلاقي بين السكان ووسّع التجارة والمثاقفة بينهما برتابة ولكن باضطراد.

(1) Ian Blanchard, Mining, Mettallurgy in the middle ages. Vol: 1: Asiatic Supermacy. Sttutgart: Steiner, 2001, 123.